

شَخِصِيَّاتٌ مِّنَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ (٣٧)

الإِخْوَةُ الثَّلَاثَةُ الصَّالِحُونَ

حسن الحاج

هناك شخصيات جليلة في تاريخنا الإسلامي، كتبتُ عن جمع منهم، وما زالت صفحاته مليئة بالكثير، وها نحن في عدد المجلة هذا نلتقي مع ثلاثة منهم، مع إخوة صالحين، كانوا نماذج رائعة ومشرقة في إيمانهم، في ولائهم، في جهادهم، وفي سيرتهم ومواقفهم الجريئة والواعية، دفاعاً عن الحق والعدل، مستفيدةً مما وهبها الله تعالى من قدرات وملاكات، تثلّت في شجاعتهم، وخطبهم البليغة، وحواراتهم مع الآخر...

إنهم ثلاثة من آل عبد القيس؛ من أشهر قبائل العرب شرفاً ومكانةً وطيبَ خصال من بلدة جواثى، الواقعة في شرق الجزيرة العربية، من بلاد البحرين... وكما يقول الحموي عن جواثى: هي حصن لعبد القيس. وفي الروض: جُواثى؛ بضم أوله وبالثاء المثناة، مدينة بالبحرين لعبد القيس، قال امرؤ القيس:

و رُحْنَا كَأَنَّ مِنْ جَوَاثَى عَشِيَّةٍ	نَعَالِي النَعَاجِ بَيْنَ عَدَلٍ وَمُشْتَقِّ
---	--

يريد كأننا من تجار جواثى؛ لكثرة ما معهم من الصيد، أراد كثرة أمتعة تجار جواثى. بين عدل أي بين معدول في أعدل، ومشتق أي معلق. وحدث الأصمعي قال: كان قوم من أهل البحرين من جواثى يتواصلون على العلم والأدب.^١

فجواثى حظيت بأن تكون أول مكان تعقد فيه صلاة الجمعة بعد المدينة المنورة، يقول عبد الله بن عباس: أول جمعة جمعت بعد الجمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثى. وهذا المسجد بناه بنو عبد القيس في السنة السابعة بعد وفادتهم الثانية من رسول الله ﷺ في قريتهم المذكورة... ولذلك يقول شاعر بني عبد القيس:

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا	والمنبران وفصل القول في الخطب
أيام لا مسجد للناس تعرفه	إلا بطيبة والمحجوج ذو الحجب

١. الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق د. إحسان عباس: ١٨١؛ وفي الهامش معجم ما استعجم ٢: ٤٠١، وياقوت (جواناء).

ولكن ابن كثير يقول: ... وكانت جواتا من البحرين أول قرية أقامت الجمعة بعد رجوع الناس إلى الحق كما في صحيح البخاري عن ابن عباس. أي بعد ارتداد الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، وعلى ذكر الردة، فقد قال من كتب عن جواتي وأهلها: إنها لم تتأثر بما وقع من ردة بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى قال بعض المؤرخين: ارتدت العرب كلها إلا أهل جواتي! أو «ارتدت جزيرة العرب كلها إلا ثلاث مدن هي مكة والمدينة والطائف وقرية صغيرة، وهي جواتا في منطقة هجر بالبحرين».

أقول: إن هذا القول، أقل ما يقال عنه: إنه إضافة إلى كونه مبالغاً فيه، فهو خال من الدقة، وبعيد عن الصواب ولا يخلو من إساءة إلى الإسلام ورسوله ﷺ وإلى ما بذله من جهد عظيم، ليس بعيداً عن تسديد السماء... ولا أطيل في ظاهرة الردة، فقد ارتد قوم عن الدين، ولكن ليس بهذه السعة، وهذا العموم «ارتدت العرب كلها». ولم يكن ما وقع لغير هؤلاء القوم ارتداداً عن الدين، وإنما هو في أغلبه موقف سياسي، وقع بعد عشرة أيام من مؤتمر السقيفة، يتوزع هذا الموقف بين معارض لما وقع في السقيفة، وبين متأخر في بيعته أو متأن حتى تنجلي الأمور أكثر، وبين ممنوع عن أداء الزكاة إما فهماً منه أنها تعطى لرسول الله ﷺ فقط دون غيره، وإما أن يتربح لمن يدفع زكاته، أو لأن الخليفة لم تكن بيعته وفق الموازين الشرعية، فكيف يُبايع أو تعطى له الزكاة، لقد كان ما حدث خليطاً من عدة أسباب، فالمفروض بالخلافة أن تلتفت إلى هذه الأسباب وغيرها، لا أن تصف الجميع بما فيهم من له موقف سياسي معارض بالارتداد عن الدين، ومحاربتهم تحت هذا العنوان، غير مبالية بما يترتب على مثل هذه التهمة من إساءة للدين ولما بذله رسول الله ﷺ وأصحابه المخلصون من جهود كبيرة وتضحيات جسام؛ لإبلاغ الدعوة ونشرها بين الناس...، وبالتالي إظهار الخلافة أنها لولا موقفها وحررها ضد هؤلاء لما بقي للإسلام شيء،

ولعاد الناس إلى جاهليتهم، فالفضل لها في إعادة الناس للدين بعد إذ هجروه وارتدوا عنه!.. إنه لمنهج عقيم وخطير ذلك الذي يصور مسلمي تلك الفترة الأهم من تاريخ الإسلام بأنهم ضعيفو الإيمان، وأن إسلامهم وقع منهم رهبةً لا رغبةً، وجهلاً لا وعياً، ومعرفة للإسلام، وبالتالي حباً له وقناعةً به...^١

وعن قبيلة عبد القيس هذه، التي ولد فيها هؤلاء الثلاثة الصالحون ونشأوا في بيئتها وأجوائها وأعرافها؛ قال أبو عبيدة: ولعبد القيس ست خصال فاقت بها على العرب منها:

أسود العرب بيتاً و أشرفهم رهطاً الجارود هو وولده.
و منها: أشجع العرب حكيم بن جبلة قطعت رجله يوم الجمل فأخذها بيده
و زحف على قاتله فضربه بها حتى قتله و هو يقول:

يا نفس لا تراعي

إن قطعت كراعي

إن معي ذراعي

فلا يعرف في العرب أحد صنع صنيعه.
ومنها: أعبد العرب هرم بن حيان صاحب أويس القرني.
ومنها: أجود العرب عبد الله بن سواد بن همام غزا السند في أربعة آلاف

١. وللمزيد، انظر مقالنا (قراءة في ظاهرة الردّة) في العدد ٤١ من هذه المجلة، وأنصح بمراجعة مقدمة كتاب الإمام الحسين عليه السلام للشيخ عبد الله العلابي، وكتاب نصوص الردّة في تاريخ الطبري؛ نقد وتحليل، بقلم الشيخ محمد حسن آل ياسين؛ البداية والنهاية، لابن كثير: ٦ فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد.

ففتحها وأطعم الجيش كله ذاهباً وقافلاً، فبلغه أن رجلاً من الجيش مرض فاشتبهى خبيصاً، فأمر باتخاذ الخبيص لأربعة آلاف إنسان فأطعمهم حتى فضل وتقدم إليهم ألا يوقد أحد منهم ناراً لطعام في عسكره مع ناره.

ومنها: أخطب العرب مصقلة بن رقة به يضرب المثل فيقال: أخطب من مصقلة.

ومنها: أهدى العرب في الجاهلية وأبعدهم مغاراً و أثراً في الأرض في عدوه وهو دعيميص الرمل كان يعرف بالنجوم هداية وكان أهدى من القطا يبدن بيض النعام في الرمل مملوء ماء ثم يعود إليه فيستخرجه...

كما أن هذه القبيلة كان لها في الشعر مكانة كبيرة، فقد أجمعت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب، ثم عبد القيس ثم ثقيف.

هذا ما قاله عنهم أبو عبيدة^١.

وهذا صعصعة نفسه يتحدث عن قومه، ويصفهم لمعاوية حين سأله في لقاء

جمعهما وهو يحمل كتاباً من الإمام علي عليه السلام: ممن الرجل؟

قال: من نزار. قال: وما كان نزار؟ قال: كان إذا غزا نكس، وإذا لقي افترس، وإذا انصرف احترس. قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال من ربيعة. قال: وما كان ربيعة؟ قال: كان يطيل النجاد، ويعول العباد، ويضرب ببقاع الأرض العماد. قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من جديلة. قال: وما كان جديلة؟ قال: كان في الحرب سيفاً قاطعاً، وفي المكرمات غيثاً نافعاً، وفي اللقاء لهباً ساطعاً. قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما كان عبد القيس؟ قال كان خصيباً خضرمياً أبيض، وهاباً لضيغه ما يجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق، يقوم

١. انظر شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٨ : ٥٦ - ٥٨ .

للناس مقام الغيث من السماء!

إنهم من أسرة آل صوحان، أسرة كأنها خلقت للإسلام لا لغيره.. وكفاها بذلك فخراً وعزاً وشرفاً، لقد أنجبت ثلاثة إخوة، كانوا بحق أهل إيمانٍ خالص بالله تعالى ورسوله ﷺ وأهل ولاء صادق لأهل البيت عليهم السلام.

إنهم صعصعة وسيحان وزيد، أبناء صوحان بن حجر بن الحارث بن المهجر بن صبرة بن جذرجان بن عباس بن ليث بن حُداد بن ظالم بن ذهل بن عجل بن عمرو بن وديعة بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار.

الكنى:

أشتهر صعصعة أنه أبو طلحة وأبو عكرمة، وقيل: أبو عمر. وأما كنى زيد وهو أخوه لأبيه وأمه: فقد ذكروا أنه كان يكنى أبا سلمان، ويبدو أنه أحب هذه الكنية؛ لحبه وملازمته لسلمان الفارسي، وقيل: أبو سليمان، أبو عائشة. أبو مسلم.

لقد عرف أبوهم صوحان بأنه «كان رأساً في الجاهلية وسيّداً في الإسلام»، وصف رائع وصفته به أمُّ المؤمنين عائشة في رسالتها إلى ابنه زيد بن صوحان، سيأتينا ذكرها. وكانت أسرته وقبيلته كما وصفها عبدالله بن عباس حينما قال لصعصعة:

«إنك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء»، وكما أطرى عليها عبد الملك بن مروان وهو يتحدث إلى جلسائه عن القبائل العربية، حين وصل الدور لقبيلة

١. انظر تهذيب التهذيب ٤ : ٤٢٢ ؛ والاستيعاب؛ والإصابة، وتاريخ بغداد ٨ : ٤٣٩.

عبد القيس: «إنَّ منهم أشدَّ الناس، وأسخى الناس، وأخطب الناس، وأحضر الناس جواباً؛ ثمَّ أردف عبارته الأخيرة هذه قائلاً: «أما أحضر الناس جواباً فصعصعة بن صوحان».

وهناك الكثير الذي يمكننا قوله وكتابته عن منزلة ومناقب ومواقف عبد القيس، التي تعدُّ من أكبر قبائل البحرين والمعروفة بأصالتها، كما عرفت في الجاهلية وكذا في الإسلام بفصاحتها وبلاغتها وشجاعتها وكرمها، وهو ما تضمنته أقوال كلِّ من تحدث أو كتب عنها، ولم يكتفوا بذكرها بل راحت كلماتهم وكتاباتهم تشييد بها وتثني على منزلتها...

ولم أجد دامتاً لعبد القيس إلاَّ معاوية بن أبي سفيان، الذي راح يصفها بأنها:
«شَرُّ قَرْيٍ عَرَبِيَّةٍ، أُنْتُنُّهَا نَبْتًا، وَأَعْمَقُهَا وَادِيًا، وَأَعْرَفُهَا بِالشَّرِّ».

كان هذا منه ردًّا على صعصعة، حين أوجعته أجوبته ومواقفه كثيرًا، كما يأتينا، ومع هذا تراه في موقف آخر يطلب من عقيل بن أبي طالب أن يصف له آل صوحان، ويصفهم بأنهم مخاريف الكلام.^١

فإرثهم واسع، ومواقفهم كبيرة، وجهودهم ثرية، سنذكر ما يتيسر لنا منها،

١. المِخْرَف: الزنبيل الصغير الذي يُجْتَنَى فيه أطيب الثمار في الخريف. والمِخْرَفَةُ: البستان. والسِّكَّة بين صفين من نخيل، والطريق الواضح، جمع مخارف ومخاريف. أو «مخاريق الكلام» المِخْرَاقُ: السِّبْفُ والسِّبْدُ، والمِخْرَاقُ أيضاً: السَّخِي الجَوَادُ.
كَأَنَّ سَيُوفَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ * مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا.
وفي حديث عليٍّ عليه السلام: «الْبَرْقُ مَخَارِيقُ الْمَلَائِكَةِ». أي: آله يزجى بها الْمَلَائِكَةُ السَّحَابَ وَتَسْوِقُهُ. وَهُوَ مِخْرَاقُ حَرْبٍ أَي: صَاحِبُ حَرْوَبٍ...

وبما يناسب هذه المقالة، التي ستتحدث عن رجالها الثلاثة بالذات.^١

الاختلاف في عددهم:

لقد وقع اختلاف في عدد أولاد صوحان بين الثلاثة والأربعة، وإن كان المشهور أن له ثلاثة هم صعصة وسيحان وزيد، ومع هذا نشير إلى أن هناك قولاً بأن له رابعاً وهو عبد الله، إلا أن في جواب عقيل بن أبي طالب عن سؤال أو طلب وجهه له معاوية بن أبي سفيان حول أصحاب الإمام علي عليه السلام، حين قال له: مَيِّز لي أصحاب عليٍّ، وابدأ بأل صوحان، فإنهم (مخاريف أو مخاريق) الكلام، فذكر عقيل زيدا وصعصة وعبدالله ولم يذكر سيحان.

وكذلك في الحديث الذي دار بين صعصة وابن عباس عندما سأل ابن عباس صعصة قائلاً: أين أخواك منك يا ابن صوحان؟ - فثناهما «أخواك»، ولم يجمعهم - فأجابه صعصة عن عبدالله وزيد ولم يذكر سيحان.

وهذان القولان وإن دلاً على أن لصوحان ثلاثة أولاد، إلا أنهما أضافا خلافاً آخر في أن الولد الثالث هو عبد الله، ولم يذكر سيحان، الذي اشتهر ذكره في المصادر، حيث إن المؤرخين ذكروا سيحان دون عبد الله، ولعل القول باتحادهما أي أنهما لشخص واحد هو الأنسب.. هذا وأن الاختلاف وإن وقع في هذا، لكن الاتفاق حاصل في الأخوين صعصة وزيد ابني صوحان العبدية نسبة إلى جدهم عبد القيس.

والتي ما إن اعتنق رجال منها الإسلام، حتى شمروا عن سواعدهم كدحاً

١. انظر أقوالهم في مروج الذهب ٢ : ٣٤٤-٣٤٥؛ والعقد الفريد ٣ : ٣٦٦، ٤ : ٣١٧؛ والاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار للمقدسي: ٥١؛ تاريخ الطبري ٢ : ٦٣٥، سنة ٣٣؛ تاج العروس؛ والمعجم الوسيط ٢٣٠، ٢٢٩، المخرف، المخراق...

وجهاداً في سبيل إعلاء كلمة الله بلا توانٍ ولا تلكأٍ ولا تخاذلٍ... فسجلوا بذلك سيرةً خالدة انصبت في الدفاع عن رسالة الإسلام وحفظها من كل مكر وكيد وعدوان... ما إن اقترب وصول عبد القيس المدينة المنورة لزيارة رسول الله ﷺ وإعلان إسلامهم بين يديه المباركتين، حتى نسبت إليه ﷺ أقوال عديدة انطلقت لتسجل لهم أوسمةً خُلدت، منها قوله ﷺ يخاطب المسلمين: «سيطلع عليكم من ههنا ركب هم خير أهل المشرق». وعند قدومهم، قال: «مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى»، وراح يدعو لهم قائلاً: «اللهم اغفر لعبد القيس».

وفي شرح النهج؛ قال أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب التاج: إن رسول الله ﷺ أكرم الجارود و عبد القيس حين وفدا إليه، وقال للأنصار: «قوموا إلى إخوانكم و أشبه الناس بكم». قال: لأنهم أصحاب نخل كما أن الأوس والخزرج أصحاب نخل، ومسكنهم البحرين واليمامة.^١

أقول: ولعلَّ عبارة رسول الله ﷺ - حين جعلهم إخوانهم وأشبه الناس بهم في الإسلام - : «قوموا إلى إخوانكم وأشبه الناس بكم في الإسلام»، لا لأنهم أصحاب نخل، فالنخل موجود في مرحلتي الجاهلية والإسلام؛ ولأنهم جاءوا إلى الإسلام إيماناً ونصرةً بمحض رغبتهم وإرادتهم كما الأنصار. بدليل أنه ﷺ ما إن قال مخاطباً الأنصار: «يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم، فإنهم أشبه الناس بكم في الإسلام». حتى أردف ذلك بقوله ﷺ: «أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين».^٢

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٨ : ٥٦.

٢. كنز العمال، المتقي الهندي ١٢ : ٦٤؛ وأعيان الشيعة، السيد محسن الأمين ١ : ٢٤٢؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي ٨ : رقم ١٣٦٢٤ وغيرها.

لقد عرفت هذه القبيلة، وبالذات أسرة صوحان؛ منذ أن أسلمت، بثباتها على الدين، الذي آمنت به، وقد آبت إلا أن ترسم نموذجاً فذاً، ومثلاً كبيراً في تفانيها بالأنفس والأموال وكلمات الحق التي أطلقها أبناؤها عند أمراء الجور والتعسف، كل ذلك من أجل دينها، الذي آمنت به عن وعي وبصيرة، فسجلوا إراثاً طيباً وتاريخاً ناصعاً في الدنيا، خلّد لهم رصيلاً عظيماً في الآخرة.

من هذه الأسرة الطيبة، وفي هذا الوسط العلمي المعروف بالبلاغة والفصاحة، وفي هذه الأجواء، كانت ولادة ونشأة هؤلاء الإخوة الثلاثة.

فقد ذكروا أن صعصعة، ولد في جزيرة دارين بمنطقة القطيف سنة ٢٤ قبل الهجرة النبوية المباركة، وفي قول ولد في ديار قومه بني عبد القيس، وكانت نشأته بين أشرفها وزعمائها...

إسلامهم:

فما كان من صعصعة، وهو صغير يافع، إلا أن يعتنق الإسلام الذي أحبه، وأدرك عصره الأول على حياة رسول الله ﷺ، ولكنه لم يرزق شرف لقائه ﷺ وهو ما ذكره كل من ابن عبد البر: «كان مسلماً على عهد رسول الله ﷺ لم يلقه ولم يره صغر عن ذلك».

وعن الذهبي: «صعصعة بن صوحان العبدي سيد شريف كبير، أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يره»^١.

وكذا أخوه زيد، فقد أسلم أيضاً في حياة النبي ﷺ وهذا نص الرواة: «كان مسلماً على عهد النبي ﷺ». وذكر بعضهم أنه وفد على رسول الله ﷺ. والوفادة

١. الاستيعاب؛ أسد الغابة؛ الإصابة رقم ٤١٣٤؛ سير أعلام النبلاء ٣: ٥٢٥؛ الإصابة في تمييز الصحابة، ٢٩٥٧.

هذه قد تكون هي التي أشار إليها الحافظ بن عبد البر بقوله: «أدرك النبي ﷺ بسنة مسلماً». أي في السنة المعروفة بسنة الوفود...
وأما أخوهم الثالث فهو سيحان، وكان ممن أسلم، إلا أنه لم يعرف وقت إسلامه...

زيد وسيحان والصحبة المباركة:

فيما يتعلق الأمر بصعصعة بن صوحان، لم أجد فيما تيسر لي من ذكر أنه من الصحابة، بعكس ما جاء في زيد وسيحان من أقوال، فقد وقع الاختلاف في أقوال من ذكر زيدا ومن ترجم له في كونه صحابياً أم لا. فعلى قول: إنه نال وسام الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ، فهذا ابن حجر يقول: أدرك النبي ﷺ وصحبه. وجاء في الاستيعاب: قتل يوم الجمل، ذكره محمد بن السائب الكلبي عن أشياخه في تسمية من شهد الجمل فقال: و زيد بن صوحان العبدي وكان قد أدرك النبي ﷺ وصحبه؛ هكذا قال: ولا أعلم له صحبة، ولكنه ممن أدرك النبي ﷺ بسنة...

وهناك من استفاد من هذه الأبيات لشاعرٍ من عبد القيس، أنه أدرك صحبة النبي ﷺ ففي الإصابة:

«وكفى بزيد حين يذكر فعله
طوبى لذلك من صريع مكرم
ذاك الذي سبقت لطاعة ربّه
منه اليمين إلى جنان الأنعم
فدعا النبيّ لهم هنالك دعوة
مقبولة بين المقام وزمزم».

فقد ذكر ابن عساكر هذه الأبيات في ترجمة زيد بن صوحان. وعلى هذا فهو صحابي لا محالة.

فيما ذهب آخرون أنه من التابعين، وفي قول: إنه من تابعي الكوفة كما عن ابن سعد في الطبقات. وعن ابن إسحاق: أنه أدرك النبي ﷺ. وعن أبي عبيدة: أن له وفادة...^١

وأما سيحان فعند بعض كانت له صحبة، وعجبت من الذهبي الذي قال عنه: «ولهما أضح اسم سيحان لا يكاد يُعرف». فهذا الذي (لا يكاد يعرف) عند الذهبي، قال عنه غيره: إنه من الصحابة؛ لأن الخلافة يومذاك كانت لا تؤمر إلا الصحابة، وكان الرجل أميراً في حرب الردة، ذكر ذلك الطبري، وهذه عبارته: «... جاءت المسلمين موادهم العظمى من بني الناجية... ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان... فقوى الله بهم أهل الإسلام، ووهن الله بهم أهل الشرك، فولى المشركون الأدبار».

وهو ما ذكره سيف بن عمر - كما في الإصابة - عن سهل بن يوسف الأنصاري عن القاسم بن محمد أنه كان أحد الأمراء في قتال أهل الردة،... وأنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة.

كما أن سيحان عدو وأخواه صعصعة وزيد في الطبقة الأولى من أهل الكوفة. وإن جاء في الإصابة ما رواه ابن حجر عن ابن مندة بخصوص زيد: «أن عداده في أهل الحجاز والمعروف أنه مخضرم».. ويمكن رفع التنافي بين الخبرين بأن زيدا قد

١. انظر الاستيعاب؛ وأسد الغابة؛ والإصابة رقم ٤١٣٤؛ وسير أعلام النبلاء ٣: ٥٢٥؛ والإصابة في تمييز الصحابة ٢٩٥٧؛ و زاد عليها ابن عساكر ثلاثة أبيات؛ أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين: ٧: ١٠٢؛ الأعلام، للزركلي.

سكن الحجاز مدةً، قبل أن يسكن الكوفة مع بني قومه عبد القيس، فعَدَّ مع صعصعة وسيحان من سكنتها، كان هذا بعد تمصيرها، واشتركا في فتح العراق.

إضافةً إلى مشاركته في حرب الجمل في صفِّ الإمام عليٍّ عليه السلام ضدَّ الناكثين، وقد نفر من مقرِّه في الكوفة يريد البصرة تلبيةً لنداء الإمام له، وقبل مغادرته الكوفة، كانت له خطبة فيمن خطب في أهل الكوفة، قائلاً: أيُّها الناس، إنه لا بدَّ لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعزِّ المظلوم ويجمع الناس، وهذا واليكم يدعوكم؛ لينظر فيما بينه وبين صاحبيه، وهو المأمون على الأمة، الفقيه في الدين، فمن نهض إليه فإننا سائرون معه... فلما فرغ سيحان من خطبته، تكلم عمار.

لقد شارك في قتال الناكثين يحمل راية قومه عبد القيس بقوة وثبات، إلى جنب أخويه صعصعة وسيحان، واشتدت المعركة، وتنقلت الراية بين الثلاثة؛ يقول ابن منظور وغيره: وكان سيحان الخطيب قبل صعصعة، وكانت الراية يوم الجمل في يده، فقتل، فأخذها زيد، فقتل، فأخذها صعصعة. قال الطبري: فارتث صعصعة، وفي قول ثانٍ للطبري: وصرع صعصعة، وهو ما يتنافا مع كون صعصعة بقي حياً إلى أن توفي في عهد معاوية. فيما أُصيب سيحان وأخوه زيد، واستشهدا ودفنا في قبر واحد.^١

بعد استشهاد سيحان رضوان الله عليه، وقد قدمنا الحديث عنه قبل زيد وصعصعة؛ بقي علينا أن نقرأ ما بقي مما تيسر لي من سيرة كلٍّ من زيد وصعصعة،

١. انظر في هذا كله الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ وسير أعلام النبلاء ٣: ٥٢٥ رقم ١٣٣ ترجمة زيد بن صوحان؛ ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور: ترجمة صعصعة بن صوحان؛ و تاريخ الطبري ٢: ٢٩٢؛ والإصابة رقم ٣٦٣٢؛ تاريخ الطبري ٣: ٢٧-٤٢ سنة ٣٦؛ كتاب الطبقات أو طبقات خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هجرية) ص ١٤٤. وانظر الإصابة رقم ٢٩١٢ أيضاً.

ونبدأ ببشارة الرسول ﷺ لزيد بالجنة أولاً وبشهادته ﷺ لصعصعة بالإيمان ثانياً.

* وأبشروا بالجنة!

لقد بشر زيد بأنه من أهل الجنة، بعضه سبقه إلى الجنة، ليلتحق كله به يوم كان بصف علي عليه السلام يُقاتل الناكثين يوم الجمل سنة ست وثلاثين هجرية، فهو صاحب يد مباركة سبقته إلى الجنة، هذا ما جاء بحقه حين روي أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى رجل يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة، فليُنظر إلى زيد بن صوحان».

وقد خصص البيهقي في كتابه دلائل النبوة باباً أسماه: باب ما روي في إخباره ﷺ عن قتل زيد بن صوحان شهيداً: فكان كما أخبر قتل يوم الجمل، فعن علي رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلى رجل يسبقه بعض أعضائه إلى الجنة، فليُنظر إلى زيد بن صوحان».

وفي خبر آخر، حدثوا فيه أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزوة بني المصطلق، نزل رجل فساق بالقوم ورجز، ثم نزل آخر فساق بالقوم ورجز، ثم بدأ لرسول الله ﷺ أن يواسي أصحابه، فنزل فجعل يقول: «جندبٌ وما جندبٌ والأقطعُ الخيرُ زيدٌ!»

فدنا منه أصحابه، وقالوا: يا رسول الله، ما ينفعنا مشيئك مخافة أن تلسعك دابة الأرض، أو تُصيبك نكبة، فركب ودنوا منه، فقالوا: لقد قلت قولاً ما ندري ما هو؟!

قال: وما ذاك؟

قالوا: قولك: «جندبٌ وما جندبٌ والأقطعُ الخيرُ زيدٌ!»

فَقَالَ: «رَجُلَانِ يَكُونَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ يَضْرِبُ أَحَدُهُمَا ضَرْبَةً يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتُقَطَّعُ يَدُ الْآخِرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُنْتَبِعُ اللَّهُ آخِرَ جَسَدِهِ يَا أَوْلَه!»
فَكَانَ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ قُطِعَتْ يَدُهُ يَوْمَ جُلُولَاءَ، وَقُتِلَ يَوْمَ الْجَمَلِ مَعَ عَلِيٍّ.
وَأَمَّا جُنْدُبٌ فَأَيُّهُ رَجُلٌ دَخَلَ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُقَبَةَ، وَعِنْدَهُ سَاحِرٌ يُكْنَى أَبَا شَيْبَانَ يَأْخُذُ أَعْيُنَ النَّاسِ، فَيُخْرِجُ مَصَارِينَ بَطْنِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِيهِ، فَجَاءَ مِنْ خَلْفِهِ فَقَتَلَهُ، وَقَالَ:

«إِلْعَنُ وَكَيْدًا وَأَبَا شَيْبَانَ

وَأَبْنَ حُبَيْشٍ رَاكِبَ الشَّيْطَانَ

رَسُولَ فِرْعَوْنَ إِلَى هَامَانَ.»

أما ابن عبد البر فقد ذكر في استيعابه أنه روي من وجوه أن النبي ﷺ كان في مسيرة له، فبينما هو يسير، إذ هو، فجعل يقول: «زيد وما زيد! جندب وما جندب!»

فسئل عن ذلك فقال: «رجلان من أمتي؛ أما أحدهما فتسبقه يده»، أو قال: «بعض جسده إلى الجنة، ثم يتبعه سائر جسده. وأما الآخر فيضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل.»

قال أبو عمر أصيبت يد زيد يوم جلولاء، ثم قتل يوم الجمل مع علي بن أبي طالب..

وكما ذكرنا أعلاه أن أحد شعراء عبد القيس، وهو ينشد شعره فخراً بقبيلته ورجالها؛ لم يغفل عن ذكر زيد فقال:

وكفى بزيد حين يُذكر فعله طوبى لذلك من صريع مُكرم

ذاك الذي سبقت لطاعة ربّه منه اليمينُ إلى الجنان الأنعم.^١
أي عبد صالح هذا، الذي يكون النظر إليه يدخل السرور على القلوب؟!
وفعلاً؛ سبقته يده إلى الجنة، بعد أن قطعت في سبيل الله كما هي شهادة
رسول الله ﷺ ولكنهم اختلفوا في أي يوم سبقته حين قطعت، ذهب بعضهم إلى أنها
قطعت يوم نهاوند، معركة وقعت في الخلافة الثانية سنة ٢١، وقيل ١٨ أو ١٩
هجريّة، قرب مدينة نهاوند في بلاد فارس. وبعضهم ذهب إلى أنها قطعت يوم
جولاء سنة ١٦ هجريّة.

وثالث ذهب إلى أن ذلك كان يوم القادسية سنة ١٥ هجريّة.
ورابع ذهب إلى أنه: «كان ذلك في جيش عليهم سلمان الفارسي، فكان
يؤمهم زيد بن صوحان، يأمره بذلك سلمان».

فيما العبارة في تاريخ بغداد: «قطعت يد زيد في جهاده المشركين، وعاش بعد
ذلك دهرًا حتى قتل يوم الجمل». دون أي إشارة إلى الوقت أو اسم المعركة، واكتفى
بذلك، وقد يفهم من عبارته أنّ اليد المذكورة، قطعت في العصر النبويّ حين كان
هناك قتال ضدّ المشركين.

كما وقع الاختلاف في أيهما قطعت؛ اليمين أو الشمال، فقد ذكر بعضهم أنها
الشمال، فقد روي أنّ زيد بن صوحان يحدث، فقال أعرابي: إنّ حديثك يعجبني،
وإنّ يدك لتربيني. قال: أو ما تراها الشمال؟

قال: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال؟

فقال زيد: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا

١. انظر دلائل النبوة للسيهقي ٦ : ٤١٦، وغيره؛ وطبقات ابن سعد ٦ : ٨٤؛ وكتاب الأغاني ٥ :
١٤٤، رقم الحديث ١٤٧؛ والاستيعاب؛ وأسد الغابة وغيرها.

أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فذكر الأعمش أنَّ يده قطعت يوم نهاوند.

فيما سكت غيرهم.

وإن وردت اليمين في بيت الشعر أعلاه.^١

* يشهده عصابة من المؤمنين!

وكذا صعصعة، فقد وردت فيه ونخبة من المؤمنين شهادة من النبي ﷺ بالإيمان. فمن مظاهر فساد وظلم الخلافة الثالثة نفيها للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري إلى الربذة، حيث مكان وفاته رضوان الله عليه، وإذا بصعصعة مع رهط من الحجيج قد أقبلوا من مكة؛ من بيت الله الحرام، فكان مرورهم بالربذة، إذ بامرأة تعلق مرتفعاً راحت تلوي بطرف رداؤها إليهم، تنادي: يا عباد الله المسلمين، يا عباد الله الصالحين، هذا أبوذر هلك غريباً، ليس لي من يعينني عليه، فأسرعوا إليه، وحضروا وفاته، وشاركوا في دفنه، فكان صعصعة ممن شملته شهادة رسول الله ﷺ بالإيمان: «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، تشهده عصابة من المؤمنين...»^٢.

ولمكانة زيد بن صوحان عند كبار الصحابة؛ ها هو سلمان الحمدي، الفارسي؛ على جلالة قدره وعلو شأنه في الإسلام، يقدم زيدا يأمُّ الناس في صلاة الجمعة، فقد ذكروا أنه كان في جيش عليهم سلمان الفارسي، فكان يؤمهم زيد بن

١. انظر الطبقات لابن سعد ٦ : ٨٥؛ وسير أعلام النبلاء ٣ : ٥٢٦ — ٥٢٧؛ الاستيعاب ١ : ٥٤٠؛

الإصابة ١ : ٥٦٦؛ تاريخ بغداد ٨ : ٤٤٠؛ باب الزاي رقم ٤٥٠٢؛ الإصابة؛ وتاريخ ابن عساكر.

٢. الاستيعاب؛ طبقات ابن سعد؛ شرح نهج البلاغة ١٥ : ٩٩-١٠٠؛ وفتوح ابن أعثم ٢ : ١٦١-

١٦٢؛ وانظر مقالتنا «أبوذر الغفاري، وحده» مجلة ميقات الحج ١٣ : ١٩٨.

صوحان يأمره بذلك سلمان.

أن سلمان كان يقول لزيد بن صوحان يوم الجمعة: قم، فذكر قومك؛ وأما منزلته عند الخليفة الثاني، فتظهر جليّةً بعد ذكرهم للكوفة وأنها بعد أن مُصِّرت، سكنها المسلمون ومنهم زيد مع لقيف من قومه عبدالقيس، قدم وفد من الكوفة فيه زيد على عمر بن الخطاب، فجاءه رجل من أهل الشام يستمد.

فقال: يا أهل الكوفة إنكم كنز أهل الإسلام، إن استمدكم أهل البصرة، أمددتموهم، وإن استمدكم أهل الشام، أمددتموهم.

وجعل عمر يرحل لزيد، وقال: يا أهل الكوفة هكذا فاصنعوا بزيد وإلا عذبتكم.

و دعا عمر زيد بن صوحان، فضفّنه على الرحل كما تضيفون أمراءكم، ثم التفت إلى الناس، فقال: اصنعوا هذا بزيد وأصحاب زيد.

هذا بعض ما جاء في زيد، وسيأتي مزيد، أما صعصعة، فقد تميّز هو الآخر بمؤهلاته الخطابية، والخطابة تعدُّ الفن البياني الأكثر قدرةً في التأثير، والأعظم وسيلة لإبلاغ المراد، وهي دليل نباهة الخطيب وبيانه وفصاحته، ومن خلالها كما من خلال الشعر، تُعرف مهارة الإنسان وقدرته البيانية في إيصال أفكاره، وبها يحتل الإنسان مكانته الثقافية والاجتماعية، ولأهمية الخطابة وخطورتها، أشار الإمام عليّ عليه السلام بهذه الصفة، «هذا الخطيب الشحشح» ومعناها هنا: الخطيب الماهر بالخطبة، الماضي فيها...

وهذا ابن أبي الحديد بعد أن يذكر وصف الإمام عليه السلام لصعصعة، يقول:

١. سير أعلام النبلاء للذهبي؛ والإصابة؛ وطبقات ابن سعد: زيد بن صوحان.

«إنَّ الشَّحْشِشَ يَأْتِي بِمَعْنَى الْغِيُورِ، وَالشَّجَاعِ، وَالْمَوَاطِبِ عَلَى الشَّيْءِ الْمَلَازِمِ لَهُ، وَالشَّحْشِشُ: الْحَاوِي، وَمِثْلُهُ الشَّحْشِحَانُ. وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ قَالَهَا عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَصَعْصَعَةَ بِنِ صُوحَانَ الْعَبْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ».

ثُمَّ يَعْقِبُ قَائِلًا: «وَكَفَى صَعْصَعَةَ بِهَا فَخْرًا أَنْ يَكُونَ مِثْلَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يُتْنِي عَلَيْهِ بِالْمَهَارَةِ وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ؛ وَكَانَ صَعْصَعَةَ مِنْ أَفْصَحِ النَّاسِ، ذَكَرَ ذَلِكَ شَيْخُنَا أَبُو عَثْمَانَ الْجَاهِظُ».

وَكَذَا كَانَ أَحْوَاهُ زَيْدٌ وَسِيحَانُ، فَهَذَا ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، بَعْدَ أَنْ يَقُولُ عَنْ صَعْصَعَةَ: - وَكَانَ سَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قَوْمِهِ عَبْدِ الْقَيْسِ، وَكَانَ فَصِيحًا خَطِيبًا عَاقِلًا لَسَنًا دِينًا فَاضِلًا بَلِيغًا يَعُدُّ فِي أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَذْكَرُ مَا قَالَهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ عَنِ الثَّلَاثَةِ: صَعْصَعَةُ وَزَيْدٌ وَسِيحَانُ - بَنُو صُوحَانَ - كَانُوا خُطَبَاءَ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ... وَمَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ: كُنْتُ أَتَعَلَّمُ مِنْهُ الْخُطْبَ.

وَكَذَا قَالَ عَنْهُ أَصْحَابُ التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ، فَهَذَا الذَّهَبِيُّ يَقُولُ عَنْهُ: كَانَ أَحَدَ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ، كَانَ شَرِيفًا مَطَاعًا أَمِيرًا فَصِيحًا مَفْهُومًا، ... يَقَالُ: وَفَدَّ عَلَى مَعَاوِيَةَ فَخُطِبَ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ لِأُبْغِضَ أَنْ أَرَاكَ خُطِيبًا، قَالَ: وَأَنَا، إِنْ كُنْتُ لِأُبْغِضَ أَنْ أَرَاكَ خَلِيفَةً!

وَأَيْضًا الزَّرْكَلِيُّ فِي أَعْلَامِهِ: ... كَانُ خُطِيبًا، بَلِيغًا، عَاقِلًا، لَهُ شَعْرٌ.

وَتَمِيزُ أَيْضًا بِحِكْمَتِهِ وَبِقَدْرَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، حَتَّى دَفَعَتْ ابْنَ عَبَّاسٍ لِيَقُولَ لَهُ:

«أَنْتَ يَا ابْنَ صُوحَانَ بَاقِرُ عِلْمِ الْعَرَبِ». وَمَعَ كَوْنِهِ أَحَدُ مَنْ حَوْلَهُ سَنًا،

فَإِنَّ عِلْمَهُ كَانَ مَعْرُوفًا وَحِكْمَتَهُ وَاضِحَةً لَدَيْهِمْ؛ فَقَدْ جَاءَ عَنْ بَرِيدَةَ: بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ بِالْكُوفَةِ فِي مَجْلِسٍ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمًا، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا».

فَقَالَ صَعْصَعَةُ وَهُوَ أَحَدُ الْقَوْمِ سَنًا: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ لَمْ يَقُلْهَا كَانَ

كذلك».

فتوسّمه رجل من الجلساء، فقال له، بعدما تصدّع القوم من مجلسهم: ما حملك على أن قلت: صدق نبيُّ الله ﷺ ولو لم يقلها كان كذلك؟! قال: بلى، أما قول النبي ﷺ: «إنَّ من البيان سحراً»، فالرجل يكون عليه الحقُّ، وهو ألحنُّ بالحجج من صاحب الحقِّ، فيُسحر القومَ ببيانه، فيذهب بالحقِّ وهو عليه.

وأما قوله: «إنَّ من العلم جهلاً»، فيكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهله ذلك. وأما قوله: «إنَّ من الشعر حكماً»، وفي بعض المصادر (حكمة) فهي هذه المواعظ والأخبار التي يتعظها الناس. وأما قوله: «إنَّ من القول عيلاً»، فعرضك كلامك وحديثك إلى ما ليس من شأنه ولا يريد.

لقد رفعت قدراته هذه وغيرها لا في قومه فحسب، بل جعلته موضع احترام وتقدير عند الجميع، فنراه مع كونه ما زال شاباً، لا يتوقف أن يضع رأياً أو قولاً أو موقفاً يراه صائباً نافعاً بين أيدي كبار الناس ومشايخهم؛ وهذا ما نجده، وهو يسجل رأيه بل اعتراضه على الخليفة الثاني، فقد ذكروا أنَّ صعصعة هو القائل لعمر بن الخطاب، حين قسم المال الذي بعثه إليه أبو موسى، وكان ألف ألف درهم، وفضلت فضلة فاختلفوا، أين نضعها؟

فخطب عمر الناس، وقال: أيها الناس، قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس.

فقام صعصعة بن صوحان، وهو غلام شاب، وقال: يا أمير المؤمنين، إنما تشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن، فأما ما نزل به القرآن فضعه مواضعه التي وضعه الله عزّ وجلّ فيها.

فقال: صدقت، أنت مني وأنا منك. فقسمه بين المسلمين.^١

رسالة صعصعة لعقيل:

وهنا لا بد لي من أن أذكر ما كتبه صعصعة لعقيل بن أبي طالب عندما ورده وصف عقيل لآل صوحان أمام معاوية، حين طلب منه قائلاً: ميز لي أصحاب علي وأبدأ بآل صوحان فإنهم مخاريق الكلام!

قال: أما صعصعة فعظيم الشأن غضب اللسان قائد فرسان قاتل أقران يرتق ما فتق ويفتق ما رتق قليل النظر وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاربان يصب فيهما الخلدان ويغاث بهما البلدان رجلا جد لا لعب منه وأما بنو صوحان كما قال الشاعر:

إذا نزل العدو فإن عندي أسوداً تخلص الأسد النفوسا

فكلام صعصعة يدل على ما يتمتع به الرجل من إيمان صادق وعمق ومعرفة، فكان له محذراً ناصحاً، مبيناً مناقب أهل البيت عليهم السلام ودورهم في هداية الناس.. كان ذلك حين اتصل كلام عقيل بصعصعة، فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، ذكر الله أكبر وبه يستفتح المستفتحون، وأنتم مفاتيح الدنيا والآخرة.

أما بعد، فقد بلغ مولاك كلامك لعدو الله وعدو رسوله، فحمدت الله على

١. انظر لسان العرب ٨: حرف الشين: شحح؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٩: ١٠٦ رقم ٢٥٩؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر القرطبي المالكي (ت ٤٦٣)؛ تهذيب الكمال، للمزني عن طبقات ابن سعد؛ وأسد الغابة، لابن الأثير حرف الصاد؛ ومروج الذهب ٢: ٣٤٤-٣٤٥؛ وسير أعلام النبلاء؛ والأعلام، صعصعة بن صوحان؛ وانظر العليل، لابن أبي حاتم رقم الحديث: ٢٣٢٩، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ٤: ٤ صعصعة بن صوحان.

ذلك وسألته أن يفيء بك إلى الدرجة العليا والفضيب الأحمر والعمود الأسود، فإنه عمود من فارقه فارق الدين الأزهر.

ولئن نزعت بك نفسك إلى معاوية طلباً لماله؛ إنك لذو علم بجميع خصاله، فاحذر أن تعلق بك ناره فيضلك عن الحجة! فإن الله قد رفع عنكم أهل البيت ما وضعه في غيركم، فما كان من فضل أو إحسان فيكم وصل إلينا، فأجل الله أقداركم وحمى أخطاركم وكتب آثاركم، فإن أقداركم مرضية وأخطاركم محمية وآثاركم بدرية، وأنتم سلم الله إلى خلقه ووسيلته إلى طرقه، أيدٍ عليه ووجوهٍ جلية، وأنتم كما قال الشاعر:

فما كان من خير أتوه وإنما توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل!

لقد أعطيت لساناً حديداً!

هذا ما قاله معاوية لصعصعة بعد أن لم يترك له عذراً، ولم يستطع عليه حجةً ولم يطق معه صبراً، تعال معي أيها القارئ العزيز؛ لنرى - باختصار - كيف أجاب معاوية وفند آراءه وأقواله في العديد من اللقّات:

في سنة ٣٣ هجرية، بعد أن قدم سعيد بن العاص الكوفة والياً عليها من قبل الخلافة الثالثة، حدثت مشاجرة بينه وبين جمع من وجوه الكوفة، كان بينهم مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وصعصعة وزيد ابنا صوحان العبديان، وكانا مقيمين في الكوفة حتى عدا من وجوه أهلها، فكتب سعيد إلى عثمان: أن رهطاً من أهل الكوفة سّمّاهم له عشرة يؤلبون ويجمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا، وقد

١. مروج الذهب ١ : ٣٦٤ .. أو ٣ : ٤٦-٤٧.

خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثرُوا.

فكتب إليه: أن سيرهم إلى معاوية، وكتب عثمان إلى معاوية أن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خُلِقوا للفتنة، فرُعِهم، وقم عليهم، فإن آنت منهم رشدًا، فاقبل منهم. وإن أعيوك فارددهم عليهم.

ففي لقاء بل وأكثر من لقاء؛ راح معاوية يشيد بأبيه أبي سفيان وبين عظمته، وبالتالي عظمته هو؛ وقد سبق ذلك هجومه على صعصعة وقبيلته واتهامه وهجاؤه لهم ولمن سير معه من الكوفة إلى الشام.. جاء كل هذا من كلام طويل له معهم:

... فَأَمَّا أَنتَ يَا صَعْصَعَةُ فَإِنَّ قَرَيْتَكَ شَرُّ قُرَى عَرَبِيَّةٍ، أَتْنَهَا نَبْتًا، وَأَعْمَقُهَا وَادِيًا، وَأَعْرَفُهَا بِالشَّرِّ، وَالْأَمَهَا جِيرَانًا، لَمْ يَسْكُنْهَا شَرِيفٌ قَطُّ وَلَا وَضِيعٌ إِلَّا سَبَّ بِهَا، وَكَأَنَّ عَلَيْهِ هُجْنَةً، ثُمَّ كَانُوا أَفْبَحَ الْعَرَبِ أَلْقَابًا، وَالْأَمَةُ أَصْهَارًا، نُزَاعَ الْأُمَمِ، وَأَنْتُمْ جِيرَانُ الْخَطِّ وَفَعْلَةُ فَارِسٍ، حَتَّى أَصَابْتُمْ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَكَبْتُمْ دَعْوَتَهُ، وَأَنْتَ نَزِيعُ شَطِيرٍ فِي عُمَانَ، لَمْ تَسْكُنِ الْبَحْرَيْنِ فَتَشْرِكْهُمُ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْتَ شَرُّ قَوْمِكَ، حَتَّى إِذَا أُبْرِزَكَ الْإِسْلَامُ، وَخَلَطَكَ بِالنَّاسِ، وَحَمَلَكَ عَلَى الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْكَ، أَقْبَلْتَ تَبْغِي دِينَ اللَّهِ عَوْجًا، وَتَنَزَعْتَ إِلَى اللَّامَةِ وَالذَّلَّةِ وَلَا يَصْعُ ذَلِكَ قُرَيْشًا، وَكَنْ يَضُرُّهُمْ، وَكَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ تَأْدِيَةِ مَا عَلَيْهِمْ،... وَإِنِّي لِأُظَنُّ أَنَّ أَبَا سَفِيَانَ، لَوْ وُلِدَ النَّاسُ لَمْ يَلِدْ إِلَّا حَازِمًا.

وهنا انبرى له صعصعة قائلًا: «كذبت، قد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان، مَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَهُ، فَكَانَ فِيهِمُ الْبِرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْأَحْمَقُ وَالْكَيسُ».

وجاء تجاوزه ذاك بعد أن أسمعته صعصعة ما لا يُرضيه، فقد قال لهم معاوية يوماً من أيام لقاآته بهم - ويبدو أنه في أول لقاآته بهم بعد وصولهم الشام - : إِنَّكُمْ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ لَكُمْ أَسْنَانٌ وَالسِّنَةُ، وَقَدْ أَدْرَكْتُمْ بِالْإِسْلَامِ شَرْفًا وَعَلَبْتُمْ الْأُمَّمَ

وَحَوَيْتُمْ مَرَاتِبَهُمْ وَمَوَارِيئَهُمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ نَقِمْتُمْ قُرَيْشًا، وَأَنْ قُرَيْشًا لَوْ لَمْ تَكُنْ عُدْتُمْ أَذَلَّةَ كَمَا كُنْتُمْ، إِنَّ أَيْمَتَكُمْ لَكُمْ إِلَى الْيَوْمِ جُنَّةٌ فَلَا تَشْدُوا عَنْ جُنَّتِكُمْ، وَإِنَّ أَيْمَتَكُمْ الْيَوْمَ يَصْبُرُونَ لَكُمْ عَلَى الْجَوْرِ، وَيَحْتَمِلُونَ مِنْكُمْ الْمُنُونَةَ، وَاللَّهُ لَتَنْتَهِنَّ أَوْ لَيَبْتَلِيَنَّكُمْ اللَّهُ بِنِيسُومِكُمْ، ثُمَّ لَا يَحْمَدُكُمْ عَلَى الصَّبْرِ، ثُمَّ تَكُونُونَ شُرَكَاءَ لَهُمْ فِيمَا جَرَرْتُمْ عَلَى الرَّعِيَّةِ فِي حَيَاتِكُمْ وَبَعْدَ مَوْتِكُمْ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ قُرَيْشٍ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ أَكْثَرَ الْعَرَبِ وَلَا أَمْنَعَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتُخَوِّفُنَا، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْجُنَّةِ فَإِنَّ الْجُنَّةَ إِذَا اخْتَرَقَتْ خُلِصَ إِلَيْنَا.

هذا في تاريخ الطبري ٢ : ٦٣٥، سنة ٣٣، لم يصرح باسم الرجل القائل، إلا أن المقطع الذي ذكره الطبري قد يشير إلى أنه صعصعة، ولكن ابن الأثير ذكره صراحة حيث قال: فقال رجل منهم وهو صعصعة:...

فَقَالَ مَعَاوِيَةَ: عَرَفْتُمْ الْآنَ، عَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي أَغْرَأَكُمْ عَلَى هَذَا قَلَّةُ الْعُقُولِ، وَأَنْتَ خَطِيبُ الْقَوْمِ، وَلَا أَرَى لَكَ عَقْلًا، أَعْظَمُ عَلَيْكَ أَمْرَ الْإِسْلَامِ، وَأَذْكَرُكَ بِهِ، وَتَذَكَّرُنِي الْجَاهِلِيَّةَ! وَقَدْ وَعَظْتُكَ وَتَزَعَّمُ لِمَا يَجْنُكَ أَنَّهُ يُخْتَرَقُ، وَلَا يُنْسَبُ مَا يُخْتَرَقُ إِلَى الْجُنَّةِ... أَفْ لَكَ وَلَا صُحَابِكَ! وَلَوْ أَنَّ مَنَّكَمَّا غَيْرَكَ تَكَلَّمُ، وَلَكِنَّكَ ابْتَدَأْتَ...^١

فخرج تلك الليلة من عندهم، ثم أتاهم القابلة، فتحدث طويلاً، ومما قاله: «أَيُّهَا الْقَوْمُ، رُدُّوا عَلَيَّ خَيْرًا أَوْ اسْكُتُوا وَتَفَكَّرُوا وَأَنْظَرُوا فِيمَا يَنْفَعُكُمْ وَيَنْفَعُ أَهْلِيكُمْ، وَيَنْفَعُ عَشَائِرَكُمْ، وَيَنْفَعُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَاطْلُبُوهُ تَعِيشُوا وَنَعِشْ بِكُمْ. فَقَالَ صَعْسَعَةَ: لَسْتُ بِأَهْلٍ ذَلِكَ، وَلَا كَرَامَةَ لَكَ أَنْ تُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

١. انظر تاريخ الطبري ٢ : ٦٣٥ سنة ٣٣؛ والكامل في التاريخ، لابن الأثير سنة ٣٣ سير عثمان نقرأ من أهل الكوفة إلى الشام؛ ونهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري ٥ : ٣٠٦.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ... وَأَمْرُكُمْ بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ،
وَكِرَاهَةِ الْفُرْقَةِ، وَأَنْ تُوقِرُوا أَيْمَتَكُمْ وَتَدُلُّوهُمْ عَلَى كُلِّ حَسَنٍ مَا قَدَرْتُمْ، وَتَعْظُوهُمْ
فِي لَيْلٍ وَلُطْفٍ فِي شَيْءٍ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ...

فَقَالَ صَعْصَعَةُ: " فَإِنَا نَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ عَمَلَكَ، فَإِنَّ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ
بِهِ مِنْكَ، قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ أَبُوهُ أَحْسَنَ قَدَمًا مِنْ أَبِيكَ، وَهُوَ بِنَفْسِهِ أَحْسَنَ
قَدَمًا مِنْكَ فِي الْإِسْلَامِ... ».

وفي الفتوح: قال معاوية: قاتلك الله يا صعصعة! قد أعطيت لساناً
حديداً... أخرج عني، أخرجك الله إلى النار!

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ: ... فَإِنَّكَ بَعَثْتَ إِلَيَّ أَقْوَامًا يَتَكَلَّمُونَ بِاللُّسِنَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَمَا
يُمْلُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَأْتُونَ النَّاسَ - زَعَمُوا - مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ، فَيَشَبِّهُونَ عَلَى النَّاسِ،
وَكَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَعْلَمُ مَا يُرِيدُونَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ فُرْقَةً، وَيُقَرَّبُونَ فِتْنَةً، قَدْ أَثْقَلَهُمْ
الْإِسْلَامُ وَأَضْجَرَهُمْ، وَتَمَكَّنَتْ رُفَى الشَّيْطَانِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَقَدْ أَفْسَدُوا كَثِيرًا مِنْ
النَّاسِ مِمَّنْ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَلَسْتُ آمِنٌ إِنْ أَقَامُوا وَسَطَ أَهْلِ
الشَّامِ أَنْ يُغْرَوْهُمْ بِسِحْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، فَارْدُدْهُمْ إِلَى مِصْرِهِمْ، فَلْتَكُنْ دَارُهُمْ فِي
مِصْرِهِمْ الَّذِي نَجَمَ فِيهِ نِفَاقُهُمْ، وَالسَّلَامُ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُثْمَانُ يَأْمُرُهُ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِالْكُوفَةِ، فَارْدُدَّهُمْ
إِلَيْهِ، فَلَمْ يَكُونُوا إِلَّا أَطْلَقَ أَلْسِنَةً مِنْهُمْ حِينَ رَجَعُوا.

وَكَتَبَ سَعِيدٌ إِلَى عُثْمَانَ يَضِجُ مِنْهُمْ، فَكَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى سَعِيدٍ أَنْ سِيرَهُمْ إِلَى
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى حِمصٍ...

وفي خبر أنه لما خرجوا من دمشق، سمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
وكان على حمص فدعاهم إليه، وأسمعهم كلاماً قاسياً وتوعدهم بالسوء، كانت
بدايته: (يا آله الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً...) وأبقاهم عنده شهراً، ثم سرحوا

إلى الكوفة أو هم فرّوا إليها من قبضة عبد الرحمن بعد غيابه عن حمص...^١

الفساد في الخلافة الثالثة:

مع ما جرى لهذه النخبة المؤمنة، لم تتوقف سيرة صعصعة وزيد ومن معهما في ملاحقة والي الكوفة، وقد تردت الأوضاع فيها وساءت، وكلما ازدادت حياة الناس سوءاً، والولادة فساداً، تعالی استنكارهم وتوقّدت نيران غضبهم، واشتدت مواقفهم واتسعت لتتعدى الكوفة، فاخترأوا وفداً كان من بين أعضائه كلُّ من زيد وصعصعة؛ لمقابلة الخليفة عثمان، وكان مطلبهم عزل سعيد عن ولاية الكوفة، ولم يجدوا من الخليفة إلاّ الغضب عليهم، ولأنّ صعصعة كان هو خطيب الجمع، ولأنه أكثر الكلام عنده، جاء ردُّ عثمان عليه شديداً، واصفاً إياه بالبجباغ النفاخ، فقال: «أبها الناس إن هذا البجباغ النفاخ لا يدري ما الله ولا أين الله».

قال في الفائق: البجباغ الذي يهمز الكلام وليس لكلامه جهة، وروي الفجفاج وهو الصياح المكثار، وقيل المأفون المختال. والنفاخ الشديد الصلف. «لا يدري ما الله ولا أين الله». معناه أن حاله وفي وضع لسانه من إكثار الخطل وما لا ينبغى أن يقال كل موضع كحال من لا يدري أن الله سميع لكل كلام؛ عالم بما يجري في كل مكان. ولم ينسبه إلى الكفر وقد شهد صعصعة مع علي رضي الله عنه يوم الجمل، وكان من أخطب الناس، وأخوه زيد الذي قال فيه النبي ﷺ: «زيد الخير الجذم من الخيار الأبرار».^٢

وتوالى الوفود من الكوفة ومصر وغيرهما على مقر الخلافة في المدينة؛

١. تاريخ الطبري ٢ : ٥٣٩-٦٣٤، سنة ٣٣؛ والفتوح، لابن أعثم الكوفي ٢ : ١٧٧؛ وأنساب الأشراف ٥ : ٤٣؛ والكامل في التاريخ، لابن الأثير (٦٣٠هـ) سنة ٣٣.
٢. انظر الفائق في غريب الحديث، الزمخشري جار الله، (ت ٥٣٨هـ).

هدفها إنهاء الفساد الذي راح ينخر جسد الأمة، ولما اشتد الضغط على الخليفة، راح يعطي العهد تلو الآخر دون أن يفي بشيء منها، كما باءت كل المحاولات للإصلاح بإنهاء أسباب الفساد والتجاوز على أحكام الله وحقوق الناس؛ حتى انتهى الأمر بقتله، فزادت الأمة اضطراباً وتفريقاً، وعمت الفوضى، واعتدي على أحكام الدين ومفاهيمه، وعلى الصالحين من أهل الحق ورجاله؛ وغدا التأويل سيد الموقف، فتحكمت قاعدة من تأول فأصاب فله أجران ومن تأول فأخطأ فله أجر، فصار الجميع في أفعالهم وأقوالهم وما صدر منهم ووقع وإن سفكت بسببه الدماء وانتهكت به المحارم، ودمر بسببه الحرث والنسل؛ في دائرة الاجتهاد الذي يمد هؤلاء وهؤلاء بالقوة والحقانية، وبالتالي لا يجرمهم من عطاء السماء، فكلاً وعد الله الحسنى، فلا إثم عليهم ولا حساب لا في قضاء الدنيا ولا في قضاء الآخرة، وبالتالي توقف القضاء الحق، وضاعت الحقوق، وصار القاتل والمقتول، والظالم والمظلوم سواء في هذه الأمة مع اختلاف في الأجر، واحد له أجران والآخر له أجر، أي استهانة هذه بالدين وأي عدالة هذه، وأي استخفاف بالعقول؟!

إنه لأمر يوجب القلوب حقاً، لا أقول غيره، فالمقالة ليست مجالاً لمناقشة قاعدتهم المذكورة، التي بانّت خطورتها وأضرارها حينما وسعوا دائرة عملها من استنباط الأحكام الشرعية من منابعها من قبل المستنبط ذي القدرة العلمية، ببذل جهده وإفراغ وسعه، مع ورع في الدين وإخلاص وصدق في العمل والسلوك، إلى مواقف الحياة السياسية والاجتماعية... فاستخدمت استخداماً سيئاً في تاريخنا، وتركت آثارها على العقائد والسلوكيات حتى يومنا هذا، بل حتى يأتينا اليقين!!
البيعة للإمام علي عليه السلام:

عرف أبناء صوحان باتباعهم المطلق للإمام علي عليه السلام، فحبّهم لعلي عليه السلام ابْتِنِي على معرفة به، وبإمامته الحقّة، فلم يتغير، وولاؤهم له

لم يتبدل، فلقد رأوا في عليٍّ عليه السلام - وهو الحقُّ - علاقته المتينة بالله تعالى وذوبانه فيه، بعد معرفته بالله (فأول الدين معرفته)، وهو ما وجدوه في عشرتهم له، ولمسوه في مصاحبتهم إياه، ولم يجدوا مثيلاً له بعد رسول الله ﷺ فتمسَّكوا فيه أيما تمسَّك؛ ولاذوا به، فتفانوا دفاعاً عنه؛ لأنَّ الدفاع عنه دفاع عن منهج السماء، وعن الهدى الذي تمثل فيه...

وهذا ما نجده واضحاً في كلمات صعصعة حينما أتاه عائداً، وهي دليل معرفته به: «... يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً، فوالله لقد كان الله في صدرك عظيماً، ولقد كنتَ بذات الله عليماً!»

فيجيبه الإمامُ عليٌّ عليه السلام: «... وأنت يرحمك الله، فلقد كنت خفيف المؤونة، كثير المعونة». وفي خبر آخر: «و الله ما علمتك إلا كثير المعونة، قليل المؤونة، فجزاك الله خيراً».

ويجيبه صعصعة قائلاً: «و أنت فجزاك الله أحسن من ذلك، فإنك ما علمتك إلا بالله عليم، والله في عينك عظيم!»

ولم يغفل صعصعة سيرة عليٍّ معه ومع جميع أصحابه، وكذا سيرتهم معه: «كان فينا كأحدنا، لين جانب، وشدَّة تواضع، وسهولة قيادٍ، وكنا نهاه مهابة الأسير المربوط للسيِّف الواقف على رأسه»^١.

لقد كانت مبادرته وأخوته إلى بيعة الإمام عليٍّ عليه السلام بالخلافة أمراً أملاه عليهم ولاؤهم الصادق له، ومعرفتهم بأحقِّيته عليه السلام، المنبثقة من إيمانه الخالص، ومواقفه العظيمة دفاعاً عن الإسلام، ومناقبه الجليلة، ومؤهلاته الكبيرة، التي أفاضها

١. مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني : ٥٠؛ شرح نهج البلاغة، ١ : ٢٥، القول في نسب أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام و ذكر لمع يسيرة من فضائله؛ أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين ١ : ٣٢٣.

الله تعالى عليه؛ حتى جعلت إمامته إمامة الحق، وخلافته لرسول الله ﷺ هي وحدها الخلافة الصالحة العارفة، الجديرة بإقامة الحق والعدل، وتطبيق أحكام الشريعة، إلا أن هذه التجربة، التي راح الجميع يترقبها بشوق ولهفة، ومنتظر منها أن تحقق الآمال عبر قيامها في إدارة شؤون الأمة، صدت وحوصرت من قبل ذوي الأحقاد والضغائن، ومتبعي الأهواء، ومحبي السلطة والمال، الذين ما اجتمعت موافقهم يوماً واتحدت، رغم اختلافهم في الكثير، إلا على تقويض خلافة الإمام علي عليه السلام، بل القضاء عليها حتى وإن عظم حجم الفساد الذي أدخلوه على الدين، وعلى كاهل هذه الأمة بتمزيقها، وإهلاك حرثها ونسلها... والإساءة لكل خير، بل والإطاحة به...

... وكان القاسطون، فكانت حرب صفين... وكان المارقون، فكانت حرب النهروان. وهكذا اشتدت الأزمات، وتوالت الموانع، وعظمت العقبات، التي نصيها هؤلاء لإفشال منهج الإصلاح والتغيير في الأمة بعد أن أفسد أوضاعها من لم يكن جديراً بإدارتها.

فكان الناكثون، وكانت حرب الجمل: وقبل أن تقع معركة الجمل وتبدأ فصولها؛ قدم الإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر وقيس بن سعد الكوفة مستنفرين أهلها، وكان معهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل الكوفة... وبعد قراءة الكتاب، كانت هناك خطبة للإمام الحسن عليه السلام، تبعه كل من عمار بخطبة وقيس بأخرى...

وكانت لزيد خطبة:

ثم جاء دور زيد بن صوحان؛ ليرد على خطبة أبي موسى الأشعري، التي راح يتبسط بها الناس عن الخروج، «... أشيموا سيوفكم، وقصروا رماحكم، وقطعوا أوتاركم، والزموا البيوت...».

فنهض ورفع يده - وكانت يده قطعت يوم جلولاء- ثم قال: «يا أبا موسى تريد أن ترد الفرات عن أدراجه، أنه لا يرجع من حيث بدأ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد، ويملك! ما لست مدركه. ﴿الْم ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ ١

ثم قال: أيها الناس، سيروا إلى أمير المؤمنين، وأطيعوا ابن سيد المرسلين (الإمام الحسن)، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق، وتظفروا بالرشد، قد والله نصحتكم، فاتبعوا رأيي ترشدوا».

* كان صعصعة أول من حمل نصيحة الإمام علي عليه السلام لأصحاب الجمل، وذلك حين سار أمير المؤمنين عليه السلام من ذي قار قدم صعصعة بن صوحان بكتاب علي عليه السلام إلى طلحة والزبير وعائشة يعظم عليهم حرمة الإسلام، ويخوفهم فيما صنعوه، وقبيح ما ارتكبه من قتل من قتلوا من المسلمين، وما صنعوا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله عثمان بن حنيف رحمه الله، وقتلهم المسلمين صبراً. ووعظهم ودعاهم إلى الطاعة، قال صعصعة رحمه الله: «فقدمت عليهم، فبدأت بطلحة، وأعطيته الكتاب وأديت الرسالة».

فقال: «الآن حين عضت ابن أبي طالب الحرب ترفق لنا. ثم جئت إلى الزبير فوجدته ألين من طلحة، ثم جئت إلى عائشة فوجدتها أسرع الناس إلى الشر، فقالت: نعم قد خرجت للطلب بدم عثمان، والله لأفعلن وأفعلن. فعدت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فلقينته قبل أن يدخل البصرة، فقال: ما وراءك يا صعصعة؟

قلت: يا أمير المؤمنين رأيت قوماً ما يريدون، إلا قتالك.

فقال: الله المستعان!»^١

وكتبت إلى زيد

قبل وقوع معركة الجمل، راحت رسائل أم المؤمنين عائشة تصل إلى العديد من الشخصيات، تستنصرهم على علي عليه السلام، أو تثبطهم وتحذّهم ومن معهم عن نصره علي عليه السلام، وكان منها رسالتها إلى زيد بن صوحان العبدي إذ قدمت البصرة:

من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان. سلام عليك، أما بعد: فإن أباك كان رأساً في الجاهلية، وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمنزلة المصلي من السابق، يقال: كاد أو لحق، وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون عليك، والعيان أشقى لك من الخبر، فإذا أتاك كتابي هذا، فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل، فثبط الناس عن علي بن أبي طالب، وكن مكانك حتى يأتيك أمري، والسلام. ولم يتأخر ردُّ زيد بن صوحان على عائشة، فكتب إليها:

«من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين، سلام عليك، أما بعد: فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر، أمرك أن تقر في بيتك، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة، فتركت ما أمرت به، وكتبت تنهينا عما أمرنا به، فأمرك عندنا غير مطاع، وكتابك غير مجاب، والسلام».

١. كتاب الجمل ٢٤٨، ٣١٣؛ البداية والنهاية ٧: ٢٣٦ وفيها: (... فقام زيد بن صوحان فقال: أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، سيروا إليه...)؛ الفتوح ٢: ٢٩١-٢٩٢.

وفي رواية الطبري: كتب إليها من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر...
أما بعد: فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر، ورجعت إلى بيتك، وإلا فأنا أول
من نابذك^١.

وجاء أيضاً في تاريخ الطبري حول ما قاله زيد عن كتاب عائشة:... وَثَارَ
زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ وَطَبَقْتُهُ وَثَارَ النَّاسُ، وَجَعَلَ أَبُو مُوسَى يُكْفِكِفُ النَّاسَ، ثُمَّ انْطَلَقَ
حَتَّى أَتَى الْمَنْبَرَ، وَسَكَنَ النَّاسُ، وَأَقْبَلَ زَيْدٌ عَلَى حِمَارٍ حَتَّى وَقَفَ بَبَابِ الْمَسْجِدِ
وَمَعَهُ الْكِتَابَانِ مِنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَيْهِ وَإِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ كَانَ طَلَبَ
كِتَابِ الْعَامَّةِ فَضَمَّهُ إِلَى كِتَابِهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَمَعَهُ كِتَابُ الْخَاصَّةِ وَكِتَابُ الْعَامَّةِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَتَبَطُّوا أَيُّهَا النَّاسُ وَاجْلِسُوا فِي بُيُوتِكُمْ إِلَّا عَنْ قَتْلَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

فَلَمَّا فَرَعَ مِنَ الْكِتَابِ قَالَ: أَمِرْتُ بِأَمْرٍ وَأَمِرْنَا بِأَمْرٍ، أَمِرْتُ أَنْ تَقْرَأَ فِي بَيْتِهَا،
وَأَمِرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً، فَأَمَرْتُنَا بِمَا أَمِرْتُ بِهِ وَرَكِبْتُ مَا أَمِرْنَا بِهِ.

فَقَامَ إِلَيْهِ شَبْتُ بْنُ رَبِيعٍ فَقَالَ: يَا عُمَانِيُّ - وَزَيْدٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ عُمَانٍ وَلَيْسَ
مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ - سَرَقْتَ مَجْلُولَاءَ فَقَطَعَكَ اللَّهُ، وَعَصَيْتَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَتَلَكَ اللَّهُ! مَا
أَمَرْتُ إِلَّا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ، فَقُلْتُ: وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، وَتَهَاوَى
النَّاسُ^٢.

وقبل أن يبدأ القتال، دعا الإمام علي عليه السلام كلاً من زيد بن صوحان

١. العقد الفريد ٢ : ٢٢٧؛ شرح نهج البلاغة ٢ : ٨١؛ وكتاب الجمل، للشيخ المفيد ٤٣٠-٤٣١؛
وتاريخ الطبري ٣ : ٢٦ سنة ٣٦.

٢. كتاب الجمل، للشيخ المفيد ٢٤٤-٢٤٩؛ تاريخ الطبري ٣ : ٢٦-٢٧ سنة ٣٦؛ وفيه: يا عبد
الله بن قيس، وهو اسم أبي موسى الأشعري؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٤ : ١٩-٢٠.

وعبد الله بن عباس.

فقال لهما: «امضيا إلى عائشة فقولوا لها: ألم يأمرك الله تبارك وتعالى أن تقري في بيتك؟ فخذعت وانخدعت، واستنفرت فنفرت، فاتقي الله الذي إليه مرجعك ومعادك، وتوبي إليه، فإنه يقبل التوبة عن عباده، ولا يَحْمِلُنكَ قرابةً طلحة، وحبُّ عبد الله بن الزبير على الأعمال التي تسعى بك إلى النار». فانطلقا إليها وبلغاها رسالة عليٍّ (رضي الله عنه).

فقال عائشة: ما أنا برادة عليكم شيئاً، فإني أعلم أني لا طاقة لي بحجج علي بن أبي طالب.

فرجعا إليه وأخبراه بالخبر.^١

وبعد كل هذا وغيره، وقعت المعركة.. وكانت ساحتها ميداناً للإخوة الثلاثة، ولم يخلو هذا الميدان ممن يحاول تثبيطهم، فقد انبرى لزيد رجلٌ من قومه يقول له: تنح إلى قومك، ما لك ولهذا الموقف! أَلستَ تعلم أن مضر بجيالك، وأنَّ الجمل بين يديك، وأنَّ الموت دونه!

فقال له زيد: الموت خير من الحياة، الموت ما أريد!

كيف يتخلَّى زيدٌ عن مشوار الشهادة التي بُشر بها، وقد سبقته يده إليها، قبل أكثر من ١٥-٢٠ سنة حسب اختلاف الأخبار، كما ذكرنا، فهي أمامه في الجَنَّة تنتظره!

وراحت راية عبد القيس تنقل بين الثلاثة في قتال شديد، واجتلاب عنيف، حتى إذا وقع صوحان شهيداً - كما ذكرنا - تناولها زيد، الذي كان على خيل عبد القيس، يصول بها ويقا تل تحتها؛ ليستلمها منه أخوه صعصعة بعد أن نال وسام

١. الفتوح ٢ : ٤٦٧.

الشهادة، حين قتله عمرو بن يثربي، وكان من شياطين أصحاب الجمل، كما يسمونه، وبدأ يفتخر ويقول:

إن تنكروني (تقتلوني) فأنا ابن يثربي

قاتل علباء وهند الجملي

ثم ابن صوحان على دين عليّ

ولم يدم افتخار عمرو طويلاً، فقد ضربه عمار ضربة هلك منها وخرّ صريعاً... وقول أنه أسر ثم أمر به عليٌّ عليه السلام فضربت عنقه.^١
لقد ذهب زيد بن صوحان شهيداً بأيدي باغية ناكثة إلى حيث تلك اليد المباركة، التي أشرفت عليه من السماء، تقول له: هلمّ إلينا! فلقد روي: «أن زيد بن صوحان العبدي قال لعليٍّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، إني رأيت يداً أشرفت عليّ من السماء، وهي تقول: هلمّ إلينا! وأنا خارج إلى ابن يثربي، فإذا قتلني، فادفني بدمي، ولا تغسلني فإني محاصم عند ربّي. ثم خرج فقتله عمرو».^٢

وصيته:

وقد أوصى زيد بن صوحان من حوله: «لا تغسلوا عني دماً، ولا تنزعوا عني ثوباً إلاّ الخفين، وارمسوني في الأرض رسماً، فإني محاصم أحاج يوم القيامة... ثم قال: ادفنوني وابن أمّي في قبر، ولا تغسلوا عنا دماً، فإننا قوم محاصمون». وروي أنه

١. كتاب الجمل، للشيوخ المفيد ٣٤٦؛ والإصابة، لابن حجر ٥: ١٢٢، رقم ٦٥١٣؛ والاشتقاق

٢٤٦-٢٤٧؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٢٥٨.

٢. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١: ٢٥٨.

أمر أن يدفن معه مصحفه.^١

وفعلًا قُتِلَا مَعًا وَدُفِنَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمَا.

وأخيراً ترجمت عليهم:

ففي ختام المعركة، ومن منزلها، وصلتها أخبار وتفاصيل ما دار من قتال، فلما سمعت بمقتل زيد ذكروا أنّها قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، يرحمه الله.

ولكن عائشة لم تقل هذا لزيد فقط، وإنما استرجعت وترجمت على طلحة وعلى الزبير لما أخبرت بمقتلهما أيضاً، راحت أمُّ المؤمنين عائشة تسترجع وتوزع الرحمات!! وهذا هو الخبر الذي ذكره البيهقي.^٢

... عن ابن سيرين قال: قال خالد بن الواشمة، لما فرغ من أصحاب الجمل، ونزلت عائشة منزلها، دخلتُ عليها، فقلت: السلام عليك يا أمَّ المؤمنين. فقالت: من هذا؟ فقلت: خالد بن الواشمة.

قالت: ما فعل طلحة؟ قلت: أصيب. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ يرحمه

الله.

قالت: ما فعل الزبير؟ قلت: أصيب. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ يرحمه

الله.

قلت: بل نحن لله وإنا إليه راجعون في زيد بن صوحان.

قالت: وأصيب؟! قلت: نعم. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ يرحمه الله.

١. تاريخ دمشق، لابن عساکر، حرف الزاي، زيد بن صوحان، رقم الحديث: ١٨٣٨٢؛ وسير

أعلام النبلاء، للذهبي، تحت عنوان: وممن أدرك زمان النبوة، زيد بن صوحان.

٢. انظر دلائل النبوة، للبيهقي ٦: ٤١٦-٤١٧؛ وتاريخ دمشق، لابن عساکر ١٩: ٤٤٤.

وفي خبر الاستيعاب: قلت: بل نحن لله ونحن إليه راجعون على زيد وأصحاب زيد...

قالت: زيد بن صوحان؟ قلت: نعم.

فقالت له خيراً.

فقلت: والله لا يجمع الله بينهما في الجنة أبداً.

قالت: لا تقل، فإن رحمة الله واسعة وهو على كل شيء قدير.

فقلت: يا أم المؤمنين، ذكرت طلحة، فقلت: يرحمه الله. وذكرت الزبير، فقلت:

يرحمه الله. وذكرت زيدا، فقلت: يرحمه الله. وقد قتل بعضهم بعضاً، والله لا يجمعهم

الله في الجنة أبداً.

قالت: أولا تدري أن رحمة الله واسعة وهو على كل شيء قدير؟!^١

وفعلاً ما علينا إلا أن نسترجع أيضاً، بل ونتعوذ من هكذا فهم للدين ولرحمة

الله تعالى، التي تساوي في نظرها بين الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول...، وإن قلنا

لهم: أين هذا الفهم من الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...﴾^٢ نجد الجواب حاضراً:

الآية تقول: متعمداً، لا متأولاً؛ وبالتالي فهؤلاء متأولون، والمتأول إن أصاب فله

أجران وإن أخطأ فله أجر... حقاً إنه لفهم للدين يوجع القلوب! كما أن أم المؤمنين

تغافلت عن آية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وكأنها نزلت لغير هذه

الأمّة، ولغير من تدافع عنهم من الصحابة، وإما أنهم ليسوا من أولي الألباب، ولاذت

١. دلائل النبوة، للبيهقي ٦: ٤١٦-٤١٧؛ وتاريخ دمشق، لابن عساكر ١٩: ٤٤٤؛ والاستيعاب

١: ٥٦٠ - ٥٦١، باب الزاي؛ والإصابة ١: ٥٨٣؛ وأسد الغابة ٢: ١٤٠؛ أعيان الشيعة؛ زيد بن

صوحان.

٢. النساء: ٩٤.

بفهمها عن العديد من الآيات القرآنية التي تتوعد البغاة والظالمين، والآية التي تصرح:

﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ...﴾

وأي تشجيع أكثر من هذا لإشاعة عملية القتل بين الناس، والفساد في الأرض، مادام القاتل والمقتول، والمعتدي والمعتدى عليه مأجورين، تشملهما رحمة الله؟!!

وعن قولها: فقالت له خيراً.

يقول السيد محسن الأمين: وقولها له خيراً يشبه قول القائل:

وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل.

وقول الآخر:

وما أخالك بعد الموت تندبني

وفي حياتي ما زودتني زادي.

ورحمة الله واسعة ولكنه شديد العقاب.^١

أقوال فيه:

إضافةً لما ذكرناه عن هذا العبد الصالح «زيد بن صوحان» هناك الكثير من

الأقوال حوله، نوجزها بالتالي:

١. أعيان الشيعة: زيد بن صوحان؛ وانظر الوافي بالوفيات ٩، رقم ١٩٦٥؛ الشاعر امرؤ القيس:

دنت وظلال الموت بيني وبينها / وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل؛ وانظر ديوان عبيد بن

الأبرص: ٤٧-٥٠، تحقيق حسين نصار.

لأعرفنك بعد الموت تندبني / وفي حياتي ما زودتني زادي / أو لا ألفينك...

فقد نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال فيه:.. «والأقطع الخير زيد.. زيد الخير الأجدم من الخيار الأبرار!» زيد وما زيد؟ «يسبقه بعض جسده إلى الجنة، ثم يتبعه سائر جسده إلى الجنة»^١.

... لما أراد زيد أن يركب دابته أمسك عمر بركابه، ثم قال لمن حضره: هكذا فاصنعوا بزيد وإخوته وأصحابه.

كان زيد سيداً في قومه، كان من سادة التابعين على القول بأنه تابعيٌّ، من خواص عليٍّ عليه السلام، من الصلحاء الأتقياء، ثقةً فاضلاً، من العلماء العبّاد، وكان صوّماً قوَّاماً... كان يقوم الليل ويصوم النهار؛ وإذا كانت ليلة الجمعة أحيّاها، معاوية بن أبي سفيان، يطلب من عقيل بن أبي طالب أن يصف له أصحاب عليٍّ عليه السلام. فقال: أما زيد و عبد الله (أخوه) فإنهما نهران جاريان يصب فيهما الخلدجان، ويغاث بهما اللهفان، رجلاً جدًّا لا لعب معه... وهذا صعصعة، نزولاً عند رغبة ابن عباس، يصف له زيداً؛ لما قال له: أين أخواك منك زيد و عبد الله؟ صفهما.

قال: كان «زيد» والله يا ابن عباس عظيم المروة، شريف الأخوة، جليل الخطر، بعيد الأثر، كميّش العروة، أليف البدوة، سليم جوانح الصدر، قليل وساوس الدهر، ذاكراً لله طرفي النهار و زلفاً من الليل، الجوع والشبع عنده سيان، لا ينافس في الدنيا، وأقل في أصحابه من ينافس فيها، يطيل السكوت، ويحفظ الكلام، وإن ينطق نطق بمقام يهرب منه الدعار الأشرار، ويألفه الأحرار الأخيار.

فقال ابن عباس: ما ظنك برجل من أهل الجنة، رحم الله زيداً!^٢

١. انظر الفائق، للزمخشري ١: ٣٥.

٢. المصدر نفسه؛ تاريخ ابن عساکر ٦: ١١-١٣؛ تاريخ بغداد ٨: ٤٤٠؛ الاستيعاب ١: ١٩٧؛

أسد الغابة ٣: ٢٣٤؛ الإصابة ١: ٥٨٢؛ مروج الذهب ٢: ٧٥.

عبادته:

أما عن عبادته، وكما قالوا: كان من العلماء العبّاد، صوّماً قوَّاماً، «يقوم الليل ويصوم النهار؛ وإذا كانت ليلة الجمعة أحيائها»، والعبارة الأخيرة جاءت ضمن مقطع، نوجزه:

كان زيد بن صوحان يقوم الليل ويصوم النهار، فإذا كانت ليلة الجمعة أحيائها... فبلغ سلمان ما كان يصنع، فأتاه فقال: أين زيد؟ قالت امرأته: ليس ها هنا، قال: فإني أقسم عليك لما صنعت طعاماً وليست محاسن ثيابك، ثم بعثت إلى زيد، فجاء زيد، وقرب الطعام، فقال سلمان: كل يا زيد، فقال: إني صائم، قال: كل يا زيد لا تنقص دينك، إن شَرَّ السير المحققة، إن لعينك عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، كل يا زيد، فأكل، وترك ما يصنع^١.

ولما مصّرت الكوفة، سكنها كثيرون، وكان منهم زيد مع جمع من أبناء قبيلته، فأنشأ مسجداً يتعبّد فيه ويتهجّد، ويقرأ القرآن الكريم، فهو من القراء، ومما كان يدعو به، خاصة في صلاة الليل، هذا الدعاء:

«إلهي قد مدّ إليك الخاطيء المذنبُ يديه مُحْسِنٍ ظَنَّهُ بك، إلهي قد جَلَسَ المَسيءُ بَيْنَ يَدَيْكَ مُقِرّاً لَكَ بِسُوءِ عَمَلِهِ وَرَاجِياً مِنْكَ الصَّفْحَ عَن زَلَلِهِ، إلهي قد رَفَعَ إِلَيْكَ الظَّالِمُ كَفِّهِ رَاجِياً لِمَا لَدَيْكَ فَلَا تُخَيِّبُهُ بِرَحْمَتِكَ مِنْ فَضْلِكَ، إلهي قد جَثَا العَايِدُ إِلَى المَعَاصِي بَيْنَ يَدَيْكَ خَائِفاً مِنْ يَوْمٍ تَجْتُو فِيهِ الخَلَائِقُ بَيْنَ يَدَيْكَ، إلهي جَاءَكَ العَبْدُ الخَاطِئُ فَرِعاً مُشْفِيقاً وَرَفَعَ إِلَيْكَ طَرْفَهُ حَذِراً رَاجِياً، وَفَاضَتْ عِبْرَتُهُ مُسْتَعْفِراً نَادِماً، وَعَزَّتْكَ وَجَلَالِكَ مَا أَرَدْتُ بِمَعْصِيَتِي مُخَالَفَتَكَ، وَمَا عَصَيْتُكَ إِذْ عَصَيْتُكَ وَأَنَا بِكَ

١. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٥: ١١١؛ تاريخ بغداد ٨: ٤٣٩، وفيه: كل يا زبيد سير المحققة: المتعب من السير، وقيل: أن تحمل الدابة ما لا تطيقه.

جاهلٌ، ولا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، ولا لِنَظَرِكَ مُسْتَخِفٌّ، ولكنَّ سَوَّلْتَ لِي نَفْسِي، وَأَعَانْتَنِي عَلَى ذَلِكَ شَقَوْتِي، وَغَرَّيْتَنِي سِتْرُكَ الْمُرْحَى عَلَيَّ، فَمِنَ الْآنَ مِنْ عَذَابِكَ مَنْ يَسْتَتِقِدُنِي، وَبَحِيلٍ مَنْ أَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي، فَبِأَسْوَأَاتِهِ غَدَاً مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ إِذَا قِيلَ لِلْمُخَفِّينَ جُوزُوا وَلِلْمُثْقَلِينَ حُطُّوا، أَفَمَعَ الْمُخَفِّينَ أَجُوزُ أَمْ مَعَ الْمُثْقَلِينَ أَحَطُّ، وَيَلِي كَلِّمَا كَبَّرَ سِنِّي كَثُرَتْ ذُنُوبِي، وَيَلِي كَلِّمَا طَالَ عُمْرِي كَثُرَتْ مَعَاصِيِي، فَكَمْ أَنْتُوبُ وَكَمْ أَعُودُ أَمَا أَنْ لِي أَنْ أَسْتَحْيِي مِنْ رَبِّي، اللَّهُمَّ فَبِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَخَيْرَ الْغَافِرِينَ»^١.

وكان القاسطون... فكانت حرب صفين:

وأما أخوهما صعصعة، فقد مدَّ الله في عمره، بعد أن كتب الله له السلامة في معركة الجمل، وإن كثرت جراحاته وأثخنه، يقول الطبري: «فقتل على راية الميسرة من أهل الكوفة زيد، وصرع صعصعة، ثمَّ سيحان». وقيل عبارته هذا بصفحة قال: «فأصيب (زيد) وأخوه سيحان، وارثت صعصعة». وهذا هو الصحيح. وكلمة ارثت لغةً: (ارثت فلان: ضُرب في الحرب فأثخن وحملَ وبه رمقٌ ثمَّ مات، فهو مُرْتَثٌ)، نعم ارثت وحمل من المعركة إلا أنه لم يصرع، فهناك دور قدر له بل أدوار تنتظره، فقد عاش صعصعة، فكان ممن حضر معركة صفين، وسجل دوراً واضحاً في أحداثها، فكان مستشاراً ومحاوراً ومقاتلاً، فهو ممن استشارهم الإمام عليُّ عليه السلام في موضوع معاوية - بعد انتهاء معركة الجمل - وأنه حمل كتاباً كتبه بيده، ولعله أول كتاب، من

١. بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ١٠٠ : ٤٤٤-٤٤٥؛ وكتب الأدعية؛ دعاء مسجد زيد، وهو قريب من مسجد السهلة في الكوفة، ويقال: إلى جانبه مسجد أخيه صعصعة.

الإمام عليّ عليه السلام حينما نزل الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان.^١

كان هذا حين التقى الإمام عليّ عليه السلام بعد انصرافه من معركة الجمل بجمع من أصحابه، وكان منهم صعصعة بن صوحان العبدي، فقال لهم: أنتم وجوه العرب عندي، ورؤساء أصحابي، فأشيروا عليّ في أمر هذا الغلام المترف - يعني معاوية - فافتنت بهم المشورة عليه.

فقال صعصعة: إن معاوية أترفه الهوى، وحببت إليه الدنيا، فهانت عليه مصارع الرجال، وابتاع آخرته بدنياهم، فإن تعمل فيه برأي ترشد وتصب إن شاء الله، والتوفيق بالله وبرسوله وبك يا أمير المؤمنين! والرأي أن ترسل إليه عيناً من عيونك، وثقةً من ثقاتك بكتاب تدعوه إلى بيعتك، فإن أجاب وأناب كان له ما لك وعليه ما عليك، وإلاّ جاهدته وصبرت لقضاء الله حتى يأتيك اليقين.

فقال عليّ عليه السلام: عزمتُ عليك يا صعصعة إلاّ كتبت الكتاب بيدك، وتوجهت به إلى معاوية، واجعل صدر الكتاب تحذيراً وتخويفاً، وعجزه استتابة واستنابة، وليكن فاتحة الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية، سلام عليك، أما بعد»، ثم اكتب ما أشرت به عليّ، واجعل عنوان الكتاب: «ألا إلى الله تصير الأمور».

قال: اعفني من ذلك.

قال: عزمت عليك لتفعلن!

قال: أفعل.

فخرج بالكتاب وتجهز وسار حتى ورد دمشق، فأتى باب معاوية، فقال لأذنه: استأذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وبالباب أرفلة من بني أمية،

١. تاريخ الطبري ٥ : ٤٤ ثم ٤٣، سنة ٣٦.

فأخذته الأيدي والنعال لقوله، وهو يقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله» وكثرت الجلبة واللغط، فاتصل ذلك بمعاوية، فوجه من يكشف الناس عنه فكشفوا، ثم أذن لهم فدخلوا.

فقال لهم: من هذا الرجل؟ فقالوا: رجل من العرب يقال له: «صعصعة بن صوحان»، معه كتاب من علي.

فقال: والله! لقد بلغني أمره، هذا أحد سهام علي وخطباء العرب، وقد كنت إلى لقاءه شيقاً، إئذن له يا غلام فدخل عليه، فقال: السلام عليك يا ابن أبي سفيان! هذا كتاب أمير المؤمنين. فقال معاوية: أما إنه لو كانت الرسل تقتل في جاهلية أو إسلام لقتلتك!

ثم اعترضه معاوية في الكلام وأراد أن يستخرجه ليعرف قريحته أطبعاً أم تكلفاً؟ فقال: ممن الرجل؟ قال: من نزار. قال: وما كان نزار؟ قال: كان إذا غزا نكس، وإذا لقي افترس، وإذا انصرف احترس. قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من ربيعة. قال: وما كان ربيعة؟ قال: كان يطيل النجاد، ويعول العباد، ويضرب ببقاع الأرض العماد. قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من جديلة. قال: وما كان جديلة؟ قال: كان في الحرب سيفاً قاطعاً، وفي المكرمات غيثاً نافعاً، وفي اللقاء لهباً ساطعاً. قال: فمن أي أولاده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما كان عبد القيس؟

قال: كان خصيباً خضراً أبيض، وهاباً لضيغه ما يجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق، يقوم للناس مقام الغيث من السماء.

قال: ويحك يا ابن صوحان! فما تركت لهذا الحي من قريش مجداً ولا فخراً. قال: بلى والله يا بن أبي سفيان! تركت لهم ما لا يصلح إلا بهم، وهم تركت الأبيض والأحمر والأصفر والأشقر والسريبر والمنبر والملك إلى المحشر، وأنى لا يكون ذلك كذلك وهم منار الله في الأرض ونجومه في السماء؟

ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل على قريش كلها، فقال: صدقت يا ابن صوحان! إن ذلك لكذلك.

فعرف صعصعة ما أراد، فقال: ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد، بعدتم عن أنف المرعى، وعلوتم عن عذب الماء.

قال: فلم ذلك ويملك يا ابن صوحان؟ قال: الويل لأهل النار، ذلك لبني هاشم، قال: قم، فأخرجوه.

فقال صعصعة: الصدق ينبي عنك لا الوعيد، من أراد المشاجرة قبل المحاورة. فقال معاوية: لشيء ما سوده قومه، وددت والله! إني من صلبه. ثم التفت إلى بني أمية، فقال: هكذا فلتكن الرجال.^١

ويظهر لي أن صعصعة لم يحمل كتاباً إلى معاوية في الشام غير هذا، ولا أدري، فقد ذكروا أكثر من لقاء له مع معاوية، وجرى فيها جدال بينهما، وفيه ذكر لكتاب معه من علي عليه السلام، اللهم إلا أن يكون صعصعة قد تأخر أياماً في الشام، ينتظر جواباً من معاوية، وخلالها عقدت جلسات يريد من ورائها معاوية الثناء على نفسه وقومه، وإظهار قدراته وما يملكه من أموال وسلطة، دون أن تخلو من تهديد وتخويف لصعصعة، كجزء من حرب إعلامية، فلعل صعصعة يحملها إلى علي عليه السلام ومن معه، فتترك آثارها وانعكاساتها النفسية والمعنوية عليهم.

ومن هذه اللقاءات، أن معاوية قال يوماً وعنده صعصعة، وكان قدم عليه بكتاب علي عليه السلام، وعنده وجوه الناس: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي.

فقال صعصعة:

١. مروج الذهب، للمسعودي ٣ : ٣٧ - ٣٨.

تَنِيكَ نَفْسُكَ مَا لَا يَكُونُ ❁ ❁ ❁ نَجْهَلًا مَعَاوِي لَا تَأْتُم

فقال معاوية: يا صعصعة! تعلمت الكلام؟!!

قال: العلم بالتعلم، ومن لا يعلم يجهل.

قال معاوية: ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك.

قال: ليس ذلك بيدك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها.

قال: ومن يحول بيني وبينك؟

قال: الذي يحول بين المرء وقلبه.

قال معاوية: اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير.

قال: اتسع بطن من لا يشبع، ودعا عليه من لا يجمع.

وفي خبر يحمل كلاماً آخر، قال معاوية يوماً لجلسائه: الأرض لله وأنا

خليفته، فما أخذتُ فلي حلال، وما تركتُ للناس فلي عليهم فيه مئة. فقال

صعصعة: ما أنت وأقصى الأمة فيه إلاّ سواء، ولكن من ملك استأثر. فغضب معاوية

وقال: لقد هممتُ...

قال صعصعة: ما كل من همّ فعل.

قال: ومن يحول بيني وبين ذلك؟

قال: الذي يحول بين المرء وقلبه!

وهذه هي سياسة معاوية ومنهجه في السلطة والأموال، واستثثاره بها، ولم

يُخْفِ ذلك، يصرح بها غير آبه ولا مكترث، فقد خطب يوماً، فقال: إن الله تعالى

يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

فعلام تلوموني إذا قصرت في إعطائكم؟

فتصدى له الأحنف بن قيس قائلاً: إنا والله ما نلومك على ما في خزائن الله،

ولكن على ما أنزله لنا من خزائنه، فجعلته أنت في خزائنك وحلت بيننا وبينه!^١
وهكذا هي إجابات صعصعة وردوده على معاوية، كانت جريئة، وكانت مسكتة، ومحرجة لمعاوية ولغيره كما ذكرنا، وسنذكر أمثلةً أخرى منها.
المهم أن صعصعة عاد من الشام، دون أن يجد استجابة من معاوية، ولم تنفع أي خطوة لحقن الدم المسلم، ورجوع معاوية عما يبغى، فكانت فصول حرب لا بدَّ منها ضدَّ من بغى وتجر، وكان صعصعة فيها صاحب دور كبير عن علم وبصيرة، ولعلَّه راح يستعجله، وهو القائل:... وكيف نتأنى بالقاسية قلوبهم، القليل في الإسلام حقهم، أعوان الظلم والعدوان، وليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من التابعين بإحسان.^٢

والتقى الجمعان:

جمع المؤمنين، وجمع البغاة، الأول كان محدود ثمانين ألف مقاتل، فيما الثاني قارب جمعهم ١٢٠ ألف مقاتل؛ على تراب صفين، موقع جغرافي على ضفاف نهر الفرات، في بلدة الرقة السورية، قريباً من الحدود العراقية، وقعت معركة كبرى بينهما، دامت ثلاثة أيام؛ ذهب ضحيتها آلاف من الطرفين، وقد سبقتها مناوشات ومبارزات طيلة ثلاثة أشهر، رافقتها محاولات للإصلاح وحقن الدماء، لم تثمر إلاَّ عن قتال مرير ومدمر، انتهى بالتحكيم.

ما إن وصل جيش الإمام عليٍّ عليه السلام أرض صفين، حتى وجدوا جيش معاوية قد سبقهم إليها، صفوا على الشريعة الخيل والرجالة، وأجمعوا أن ينعوا

١. مروج الذهب ٣: ٤٠؛ التذكرة الحمدونية ٧: ١٦٩، رقم ٨٠٣؛ كتاب نثر الدر ٢: ١٩٥-١٩٦.

٢. كتاب الفتوح، لابن الأعمش ٢: ٤٤٥.

الماء عن غيرهم. فكانت أول مهمة قبل بداية القتال، يُكلف بها صعصعة بن صوحان، حين دعاه الإمام عليٌّ عليه السلام فقال له: ائت معاوية، فقل: إنا سرنا مسيرنا هذا، وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قد قدمت بخيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالقتال، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك. وهذه أخرى قد فعلتموها، حتى حلتكم بين الناس وبين الماء، فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم. وإن كان أحبَّ إليك أن ندع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ قال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعه ابن عفان حصروه أربعين يوماً يمنعونه برد الماء ولين الطعام، اقتلهم عطشاً قتلهم الله! قال عمرو: خلّ بين القوم وبين الماء، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان، ولكن غير الماء فانظر فيما بينك وبينهم. فأعاد الوليد مقالته، وقال عبدالله ابن أبي سرح، وهو أخو عثمان من الرضاعة: امنعهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، وكان رجوعهم هزيتهم. امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة.

فقال صعصعة بن صوحان: إنما يمنع الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شرية الخمر، ضربك وضرب هذا الفاسق؛ يعني الوليد بن عقبة - فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه.

فقال معاوية: كفوا عن الرجل فإنه رسول...

يقول عبد الله بن عوف بن الأحمر، وهو الذي روى هذا الحادث، أن صعصعة رجع إلينا فحدثنا بما قال معاوية، وما كان منه وما ردّ عليه، فقلنا: وما ردّ عليك معاوية؟ قال: لما أردت الانصراف من عنده، قلت: ما تردّ عليّ؟ قال: سيأتيكم رأيي.

قال: فوالله ما راعنا إلاّ تسوية الرجال والحيل والصفوف، فأرسل إلى أبي

الأعور: امنعهم الماء.

فازدلفنا والله إليهم، فارتمينا وأطعنا بالرماح، واضطربنا بالسيوف، فطال ذلك بيننا وبينهم، فضاربناهم فصار الماء في أيدينا، فقلنا: والله لا نسقيهم. فأرسل إلينا عليُّ عليه السلام: «خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم...»^١. واستعد الجمعان لفصول المعركة، فعقدت الألوية، وأمّرت الأمراء، وكتبّت الكتاب،... فكان صعصعة بن صوحان على عبد القيس الكوفة، فيما على عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة. وإضافةً إلى كون صعصعة شغله القتال المرير في صفين، فكان فيها كعادته مقاتلاً صبوراً، فقد كان يعدُّ من رواتها، ومما رواه عن مبارزات عليٍّ عليه السلام: أن علي بن أبي طالب عليه السلام صاف أهل الشام، حتى برز رجل من حمير من آل ذي يزن، اسمه كُريب بن الصباح، ليس في أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه. ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي، فقتل المرتفع. ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه الحارث بن الجلاح فقتل؟ ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه عائد بن مسروق الهمداني، فقتل عائداً، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض، ثم قام عليها بغياً واعتداءً. ثم نادى هل بقي من مبارز؟ فبرز إليه عليٌّ عليه السلام ثم ناداه: «ويحك يا كُريب، إني أحذرك [الله وبأسه ونقمته]، وأدعوك إلى سنة الله وسنة رسوله، ويحك لا يُدخلنك ابنُ آكلة الأكباد النار».

١. كتاب وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري المتوفى سنة ٢١٢هـ تحقيق و شرح: عبد السلام محمد هارون: ١٦٢.

فكان جوابه أن قال: ما أكثر ما قد سمعنا هذه المقالة منك، فلا حاجة لنا فيها. أقدم إذا شئت. من يشتري سيفي وهذا أثره؟ فقال علياً: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ثم مشى إليه، فلم يمهله أن ضربه ضربةً خراً منها قتيلاً يتشحط في دمه.

ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري، فقتل الحارث.

ثم نادى: من يبارز؟ فبرز إليه المطاع بن المطلب القين، فقتل مطاعاً.

ثم نادى: من يبرز؟ فلم يبرز إليه أحد.

ثم إن علياً نادى: يا معشر المسلمين،

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحَرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا

عَلَيْهِ مِثْلَ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^١.

ويحك يا معاوية هلم إليّ، فبارزني، ولا يُقتلَنَّ الناس فيما بيننا».

فقال عمرو: اغتنبمه مُنتَهزاً، قد قتل ثلاثة من أبطال العرب، وإني أطمع أن

يُظفرك الله به.

فقال معاوية: ويحك يا عمرو، والله إن تُريد إلا أن أقتل، فتصيب الخلافة

بعدي، اذهب إليك، فليس مثلي يُخدع...!^٢

وهو الذي روى خطبة الأشعث بن قيس الكندي ليلة الهيرير في أصحابه من

كندة... وقصة رفع المصاحف... وموقف كبار أصحاب الإمام عليه السلام وأقوال

بعضهم: عدي بن حاتم والأشتر النخعي وعمرو بن الحمق... تجدها في كتاب وقعة

١. البقرة: ١٩٤.

٢. كتاب وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري المتوفى سنة ٢١٢هـ تحقيق وشرح: عبد السلام

محمد هارون: ٣١٥-٣١٦.

صفيين لنصر بن مزاحم: ٤٨٠-٤٨٤.

وكان المارقون... وكانت معركة النهروان

الخوارج مرقوا من الدين كما يبرق السهم من الرمية، بدأوا فتنتهم في معركة صفيين، واتسعت بعد أن عاد الإمام عليه السلام إلى الكوفة من معركة صفيين، فطال جدالهم له قرابة ستة أشهر، وتكاثر عددهم، وتجمعوا في حروراء بقيادة ابن الكواء... فأرسل الإمام عليه السلام أكثر من وفد، لعلهم يرجعون، وكان صعصعة بن صوحان في الوفد مع عبد الله بن عباس، وزياد بن النضر الحارثي، فناشدوهم الطاعة وترك العناد، فأبوا عليهم ذلك. وتكررت خطوة الإصلاح هذه فأرسل لهم كلاً من عبد الله ابن عباس وصعصعة بن صوحان.

فَقَالَ لَهُمْ صَعْصَعَةُ: أَذَكَّرُكُمْ اللهُ أَنْ تَجْعَلُوا فِتْنَةَ الْعَامِ مَخَافَةَ فِتْنَةِ عَامِ قَابِلٍ.
فَقَالَ ابْنُ الْكَوَّاءِ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنِّي دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ؟
فَقَالُوا: بَلَى.

فَقَالَ: فَإِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَطَاعَ هَذَا الرَّجُلَ فَإِنَّهُ وَأَعْظَمُ شَفِيقٍ. فَخَرَجَ مَعَهُ مِنْهُمْ نَحْوُ مِنْ خَمْسِمِائَةٍ فَدَخَلُوا فِي جُمْلَةٍ عَلَيَّ وَجَمَاعَتِهِ، وَبَقِيَ مِنْهُمْ نَحْوُ مِنْ خَمْسَةِ آلَافِ رَجُلٍ، فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ائْرُكُوهُمْ حَتَّى يَأْخُذُوا، وَيَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا. فَفَعَلَ ذَلِكَ.^١

وفي خبر آخر أن صعصعة قال: يا أمير المؤمنين، إنذن لي في كلام القوم.

قال: نعم، ما لم تبسط يداً.

فنادى صعصعة ابن الكواء فخرج إليه، فقال: أنشدكم الله يا معشر الخارجين

١. أنساب الأشراف، للبلاذري، رقم الحديث: ١٠١٠، أمر الحكيمين وما كان منهما.

أن لا تكونوا عاراً على من يغزو لغيره، وأن لا تخرجوا بأرض تُسموا بها بعد اليوم، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل.

فقال له ابن الكواء: إنَّ صاحبك لقينا بأمرٍ، قولك فيه صغير فأمسك^١.

ولما لم تؤد هذه المساعي لدرء فتنة الخوارج ومروقهم، وبعد اعتدائهم، حين احتلوا منطقة النهروان الواقعة على بعد ما يقارب ٣٥ كم من بغداد، وسفكهم الدم الحرام، بقتلهم واليها من قبل الإمام عليٍّ عليه السلام؛ عبد الله بن خباب مع زوجته، وكذا قتلهم الصحابي الجليل الحارث بن مرة، المرسل من قبل الإمام عليه السلام ليستطلع الأمر...، توجه إليهم الإمام عليه السلام بجنده وأتباعه، فأفشل مشروعه، ووأد فتنتهم، في معركة سميت معركة أو النهروان، وكان لصعصعة كما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله دورهم الكبير في قتال هؤلاء الخوارج، ومن ذلك ما جاء عن ربيعة بن عبد الله النميري، أنه قال: أخبرني رجل من الأزد، قال: نظرت إلى أبي أيوب الأنصاري، في يوم النهروان، وقد علا عبد الله بن وهب الراسي، فضربه ضربة على كتفه، فأبان يده، وقال: يؤ بها إلى النار يا مارق، فقال عبد الله: ستعلم أينا أولى بها صلياً، قال: وأبيك إني لأعلم؟

إذ أقبل صعصعة بن صوحان فوقف، وقال: أولى بها والله صلياً من ضلَّ في الدنيا عمياً، وصار إلى الآخرة شقيماً، أبعذك الله! وأنزحك! أما والله: لقد أندرتك هذه السرعة بالأمس، فأبيت إلا نكوصاً على عقبيك، فذق يا مارق وبال أمرك، وشرك أبا أيوب في قتله: ضربه ضربة بالسيف أبان بها رجله، وأدركه بأخرى في بطنه، وقال: لقد صرت إلى نار لا تطفأ، ولا يبوخ سعيرها... وانتهت فصول هذه المعركة، التي استأصلتهم إلا قليلاً منهم. وفي ختامها قال الإمام عليه السلام لهما (أبو أيوب

١. انظر العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي ٢ : ١١٩.

الأنصاري وصعصعة بن صوحان): اطلبوا لي ذا التديّة، فطلب فلم يوجد، فرجعوا إليه وقالوا: ما أصبنا شيئاً.

فقال: والله لقد قتل في يومه هذا، وما كذبتني رسول الله ﷺ ولا كذبت عليه، قوموا بجمعكم فاطلبوه.

فقامت جماعة من أصحابه، فتفرقوا في القتلى، فأصابوه في دهاس من الأرض، فوَقَه زهاء مائة قتيل، فأخرجوه يجرّ برجله، ثم أتى به عليٌّ عليه السلام، فقال: اشهدوا أنه ذو التديّة.^١

كان شاعراً

وبليغاً، وكان ذا رأيٍ شديد، وقولٍ حكيم، وكان عالماً بأخبار العرب، وكان شديداً في الحقّ، عاملاً به، لقد عرف عن صعصعة بحسن بلاغته وبشعره وبخطابته، حتى أن ابن عباس حبر الأُمّة إذا ما أراد أن يستمع إلى البلاغة والحكم وسداد الرأي وما عفا من أخبار العرب يجالس صعصعة ويسأله ويرتوي من فيض نبعه... ولقد اختاره وفد المصريين لرئاسة جماعة منهم عند دخولهم على الخليفة عثمان لطلب الإصلاح... ولصعصعة شعر جميل يرثي به الإمام عليّاً عليه السلام، فيقول:

هل خبر القبر سائليه أم قرّ عيناً بزائريه
أم هل تراه أحاط علماً بالجسد المستكين فيه
لو علم القبر من يوارى تاه على كل من يليه
ياموت ماذا أردت مني حققت ما كنت أتقيه

١. انظر مروج الذهب، للمسعودي ١ : ٣٢٢؛ به أبو أيوب وصعصعة.

ياموت لو تقبل افتداءً لكنتُ بالروح افتديه

دهر رماني بفقدٍ إلفي أذمُّ دهرِي وأشتكيه

وهناك مرثية أخرى في الإمام عليه السلام، نسبت إليه، وقد وجدت عدداً من أبياتها، مع اختلاف بسيط، نسبت إلى الشاعر المعروف أبي العتاهية، المتوفى في بغداد سنة ٢١٣هـ. يرثي علي بن ثابت وكان مؤاخياً له... جاء هذا في الموسوعة الشاملة، كتاب الأمالي للزجاجي مصدر الكتاب: موقع الوراق.

إلى مَنْ لي بأنسك يا أخياً

ومَنْ لي أن أبثك ما لدياً

طوتك خطوب دهر قد توالى

لذاك خطوبه نشرأ وطياً

فلو نشرت قواك لي المنايا

شكوت إليك ما صنعت إلّياً

بكيته يا عليّ بدمع عيني

فلم يُغن البكاء عليك شيئاً

كفى حزناً بقتلك ثم إني

نفضتُ تراب قبرك من يديا

وكانت في حياتك لي عظامٌ

وأنت اليوم أوعظ منك حياً

فيا أسفاً عليك وطول شقوتي

ألا لو إن ذلك ردّ شيئاً^١.

مواقف أخرى:

وإن توقف القتال في صفين، إلا أنَّ جهاد الكلمة لم يتوقف، فقد راح صعصعة يواصل جهاده هذا، ومنهجه الذي اختطه لنفسه منذ أن آمن برسالة السماء، ثابتاً عليه حتى يلقي مقعد صدق عند مليك مقتدر، وله في منهجه هذا أن منح الله تعالى قدرات عجيبة؛ فقد كان جوابه حاضراً ولفظه نادراً وإشارته جميلة، وحكمته بالغة، وقد أحسن المدائني حين قال: أحسن الجواب ما كان حاضراً مع إصابة المعنى، وإيجاز اللفظ، وبلوغ الحجة!

وأما المسعودي فيقول عنه: ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان، وكلام في نهاية البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعاني، على إيجاز واختصار.^٢

وهو ما امتازت به حوارات صعصعة واحتجاجاته الكثيرة، والتي واجهت معاوية، الذي استعمل أيّ وسيلة لتقوية إمارته، يوم كان أميراً على الشام، ولتقوية خلافته يوم صار خليفة على المسلمين، ومن وسائله التفاخر، فكان يعقد المجالس للمفاخرة، ومما كان يقوله في بعضها:

قد عرفت قريش أنَّ أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله
لنبيه ﷺ فإنه انتخبه وأكرمه، وإني لأظنُّ أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلاَّ
حازماً. يقول هذا وهو ما زال أميراً.

١. انظر كتاب المناقب، لابن شهر آشوب ٢: ٨٢-٨٣؛ وكتاب البحار ٤٢ : ٢٤٢.

٢. مروج الذهب، للمسعودي ١: ٣٦٧؛ من أخبار صعصعة.

يقول السيد العسكري: أرأيت مفاخرة أبعد من هذه في التيه! يرى أن أباه لو ولد الناس كلهم لم يلد إلا حازماً، وإن أباه كان أكرمها وابن أكرمها لولا نبوة النبي! كان هذا حدّ مفاخرته في أيام إمارته؟!

أما في عصر خلافته، فقد كان حدود مفاخرته أبعد مدى من هذه وأشدّ، فقد اجتمعت لديه يومذاك إلى داعي المفاخرة دواع أخرى، كانت في حسابه أهم من دواعي التغني بأجداد القبيلة، فإنه قد أصبح ملكاً يبذل قصارى جهده في تثبيت ملكه وترسيخ أساسه، وكيف يتم له ذلك، وفي المسلمين من يقول له في وجهه مقال صعصعة بن صوحان العبدي: ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله ﷺ إنما أنت طليق وابن طليق أطلقكما رسول الله ﷺ فأني تصحّ الخلافة لطلق؟^١

أيّ الخلفاء رأيتموني؟

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدي وعبد الله بن الكواء البشكري ورجالاً من أصحاب عليّ عليه السلام مع رجال من قريش. فدخل عليهم معاوية يوماً، فقال: نشدتكم بالله! إلا ما قلتكم حقاً وصدقاً، أي الخلفاء رأيتموني؟

فقال: ابن الكواء: لولا أنك عزمت علينا ما قلنا، لأنك جبار عنيد، لا تراقب الله في قتل الأخيار، ولكننا نقول: إنك ما علمنا واسع الدنيا ضيق الآخرة، قريب الثرى بعيد المرعى، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات!

فقال معاوية: إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام الذابين عن بيضته التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله والمحلين ما حرم الله

١. انظر كتاب أحاديث أمّ المؤمنين عائشة، للسيد مرتضى العسكري ١: ٣٦٦، دواعي وضع الحديث. بتصرف.

والمحرمين ما أحل الله...

فتكلم صعصعة وقال:

تكلمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت، ولم تقصر عما أردت، وليس الأمر على ما ذكرت، أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً؟ أما والله! ما لك في يوم بدر مضرب ولا مرمى، وما كنت فيه إلا كما قال القائل: «لاحلي ولا سيري»، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله ﷺ وإنما أنت طليق ابن طليق، أطلقكما رسول الله ﷺ فأنى تصلح الخلافة لطلق؟!!

فقال معاوية: لولا أنى أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول:

قابلت جهلهم حلماً ومغفرة

والعفو عن قدرة ضرب من الكرم

لقتلتكم!

من البررة والفسقة؟

في لقاء نوجزه، قال معاوية يا ابن صوحان! أنت ذو معرفة بالعرب ومجاهلها، فأخبرني عن أهل البصرة؟ وإياك والحمل على قوم لقوم! قال: البصرة واسطة العرب، ومنتهى الشرف والسؤدد،...

قال: فأخبرني عن أهل الكوفة؟ قال: قبة الإسلام، وذروة الكلام،...

قال: فأخبرني عن أهل الحجاز؟ قال: أسرع الناس إلى فتنه، وأضعفهم عنها وأقلهم غناء فيها، غير أن لهم ثباتاً في الدين وتمسكاً بعروة السيقين، يتبعون الأئمة الأبرار، ويخلعون الفسقة الفجار.

فقال معاوية: من البررة والفسقة؟

فقال: يا ابن أبي سفيان! ترك الخداع من كشف القناع، عليٌّ وأصحابه من الأئمة الأبرار، وأنت وأصحابك من أولئك!
وهكذا راح معاوية يسأله، وصعصعة يجيب حتى أمسك معاوية.
فقال له صعصعة: سل يا معاوية! وإلا أخبرتك بما تحيد عنه.
قال: وما ذلك يا ابن صوحان؟
قال: أهل الشام.
قال: فأخبرني عنهم؟ قال: أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم للمخلوق، عصاة الجبار، وخلفة الأشرار، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار!
فقال معاوية: والله يا ابن صوحان! إنك لحامل مدينتك منذ أزمان، إلا أن حلم ابن أبي سفيان يرد عنك. فقال صعصعة: بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كان قدراً مقدوراً!

وإنك لما رج من نار:

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالس على سريره، فقال: وسَّح له على ترايبته فيه! فقال صعصعة: إني والله لترايبي، منه خلقت، وإليه أعود، ومنه أبعث؛ وإنك لما رج من نار!
وقال سفيان بن عيينة: تكلم صعصعة عند معاوية فعرق، فقال معاوية: بهرك القول! فقال صعصعة: «إن الجياد نضّاحة بالماء»^١.

اللعن:

لم يعد معاوية إلى ضغائنه الأولى، فهي لم تغادره أو يغادرها، فكانت تظهر

١. العقد الفريد ٥ : ١١٥؛ ونثر الدر للآبي ١ : ٤٣٩؛ البيان والتبيين ١ : ١٢٧.

على لسانه، بعد أن لم يطق عليها صبراً، حتى يشفي قلبه من عليٍّ؛ فكان لعنه منهجه، الذي أقسم أن لا يتركه، حين طُلب منه ذلك، قائلاً: «لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له ذاكراً فضلاً». فكان يأمر به من قبضته من أتباع عليٍّ ومحبيه، فأمر صعصعة بن صوحان: اصعد المنبر فالعن عليّاً، فامتنع من ذلك، وقال: أو تعفيني؟ قال: لا.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: معاشر الناس، إن معاوية أمرني أن ألعن عليّاً، فالعنوه لعنه الله!

وكان معاوية ملتفتاً لهذه الطريقة في اللعن؛ ففي بعض المصادر كان يقول: لا والله ما عنيتَ غيري... ما عنى غيري، أخرجوه...^١

ابن عباس وصعصعة:

سبق وقد ذكرنا قول المسعودي: «ولصعصعة بن صوحان أخبار حسان، وكلام في نهاية البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعاني، على إيجاز واختصار». قول افتتح به كلامه عن أسئلة ابن عباس لصعصعة، وإعجابه بما قدمه من إجابات جميلة ورائعة.

يقول: ومن ذلك خبره مع عبد الله بن العباس، وهو ما حدث به المدائني، عن زيد بن طليح الذهلي الشيباني، قال: أخبرني أبي، عن مصقلة بن هيبة الشيباني، قال: سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس: ما السؤدد فيكم؟ فقال: إطعام الطعام، ولين الكلام، وبذل النوال، وكف المرء نفسه عن السؤال،

١. العقد الفريد، لابن عبد البر ١: ٢٤٤؛ ومثله في معجم رجال الحديث تحت الرقم: ٥٩٢٣؛ رجال الكشي: ٥٦، رقم ١٩.

والتودد للصغير والكبير، وأن يكون الناس عندك شرعاً.

قال: فما المروءة؟

قال: أخوان اجتماعاً، فإن لقياً قهراً حارسهما قليل، وصاحبهما جليل، يحتاجان إلى صيانة مع نزاهة وديانة.

قال: فهل تحفظ في ذلك شعراً؟

قال: نعم، أما سمعت قول مرة بن ذهل ابن شيبان حيث يقول:

إنَّ السيادةَ والمروءةَ عُلُقًا

حيث السماء من السَّمَاءِ الأعزل

وإذا تقابل مُجْرِيَانِ لغاية

عثر الهجين وأسلمته الأرجل

ويجي الصريحُ مع العتاق معوداً

قرب الجياد فلم يجئه الأفكل.

فقال له ابن عباس: لو أن رجلاً ضرب آباط إبله مشرقاً ومغرباً لفائدة هذه الأبيات ما عنفته، إنا منك يا ابن صوحان لعلی علم وحكم واستنباط ما قد عفا من أخبار العرب.

فمن الحكيم فيكم؟

قال: مَنْ ملك غضبه فلم يعجل، وسعي إليه بحق أو باطل فلم يقبل، ووجد قاتل أبيه وأخيه فصيح ولم يقتل، ذلك الحكيم يا ابن عباس، قال: فهل تجد ذلك فيكم كثيراً. قال: ولا قليلاً، وإنما وصفت لك أقواماً لا تجدهم إلا خاشعين راهبين لله مريدين ينيلون ولا ينالون، فأما الآخرون فإنهم سبق جهلهم حلمهم، ولا يبالي

أحدهم إذا ظفر ببغيته حين الحفيظة ما كان بعد أن يدرك زعمه يقضي بغيته، ولو وتره أبوه لقتل أباه، أو أخوه لقتل أخاه، أما سمعت إلى قول زيان بن عمرو بن زيان، وذلك أن عمراً أباه قتله مالك بن كومة، فأقام زيان زماناً، ثم غزا مالكا، فأتاه في مائتي فارس صباحاً وهو في أربعين بيتاً فقتله، وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل، ويقال: بل كان أخاه، وذلك أنه كان جاورهم، فقيل لزيان في ذلك: قتلت صاحبنا، فقال:

فلو أمي تَقَفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا

لَبَلَّ ثِيَابَهَا عِلْقَ صَبِيبٍ

ولو كانت أمية أخت عمرو

بهذا الماء ظَلَّ لها نَحِيبٍ

شهرت السيف في الأدنين مني

ولم تعطف أو اصبرنا قلوب

فقال له ابن عباس: فمن الفارس فيكم؟ حدّ لي حدّاً أسمعك منك فإنك تضع الأشياء مواضعها يا ابن صوحان، قال: الفارس من قصر أجله في نفسه، وضغم على أمله بضرسه، وكانت الحرب أهون عليه من أمسه، ذلك الفارس إذا وقدت الحروب، واشتدت بالأنفس الكروب، وتداعوا للنزال، وتزاحفوا للقتل، وتخالسوا المهج، واقتحموا بالسيوف اللجج، قال: أحسنت والله يا ابن صوحان، إنك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء، ما ورثت هذا من كلالته، زدني قال: نعم، الفارس كثير الحذر، مدير النظر، يلتفت بقلبه، ولا يدير خرزات صلبه، قال: أحسنت والله يا ابن صوحان الوصف، فهل في مثل هذه الصفة من شعر؟ قال: نعم، لزهير بن جناب

الكلبي يرثي ابنه عمراً حيث يقول:

فارس تكلاً الصحابة منه ❀ بحسام يمرُّ مرَّ الحريق

لا تراه لدى الوغى في مجال ❀ يغفل الطرف، لا، ولا في مضيق

من يراه يَحُلُّه في الحرب يوماً ❀ أنه أخرق مضل الطريق

في أبيات، فقال له ابن عباس: فأين أخواك منك يا ابن صوحان؟ صِفْهُمَا لأعرف
وزنكم. قال: أما زيد فكما قال أخو غني:

فتي لا يبالي أن يكون بوجهه ❀ إذا سد خلات الكرام شُحُوبُ

إذا ما ترا آه الرجال تحفظوا ❀ فلم ينطقوا العوراء وهو قريب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ❀ إليه، ويدعوه الندى فيجيب

بيت الندى يا أم عمرو ضجيعه ❀ إذا لم يكن في المنقيات حلوب

كأن بيوت الحي ما لم يكن بها ❀ بسابس مايلفى بهن عَرِيبُ

في أبيات، كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة، شريف الأخوة، جليل الخطر، بعيد الأثر، كميث العروة، أليف البدوة، سليم جوانح الصدر، قليل وساوس الدهر، ذاكراً لله طرفي النهار و زُلْفاً من الليل، الجوع والشبع عنده سيان، لا ينافس في الدنيا، وأقل أصحابه من يُنَافس فيها، يطيل السكوت، ويحفظ الكلام، وإن نطق نطق بَعْقَام، يهرب منه الدُّعَار الأشرار، ويألفه الأحرار الأَخيار.

فقال ابن عباس: ما ظنك برجل من أهل الجنة، رحم الله زيدا، فأين كان عبد الله منه. قال: كان عبد الله سيداً شجاعاً، مألفاً مطاعاً، خيره وساع، وشره دفاع، قُلُوبِي النحيزة، أحوذي الغريزة، لا ينهنهه منهنة عما أَرَادَهُ، ولا يركب من الأمر إلا عتاده،

سماع عدي، وباذل قرى، صعب المقادة، جزل الرفادة، أخو إخوان، وفقى فتیان، وهو
كما قال البرجمي عامر بن سنان:

سیمامُ عدى، بالنبل يقتل من رمى

بالسيف والرمح الرُّدَيْنِيُّ مشغب

مهيب مفيد للنوال مُعوَّد بفعل الندى والمكرمات مجرب

وفي أبيات، فقال له ابن عباس: أنت يا ابن صوحان باقر علم العرب ومن
أخبار صعصعة ما حدث به أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي، عن أبي الهيثم يزيد
بن رجاء الغنوي، قال: أخبرني رجل من بني فزارة ثم من بني عدي، قال: وقف
رجل من بني فزارة على صعصعة، فأسمعه كلاماً منه: بسطت لسانك يا ابن صوحان
على الناس فتهيبوك، أما لئن شئت لأكونن لك لصاقاً، فلا تنطق إلاّ حَدَدْتُ لسانك
بأذربَ من ظبّةِ السيف، بعضب قوي، ولسان علي، ثم لا يكون لك في ذلك حل
ولا ترحال.

فقال صعصعة: لو أجد غرضاً منك لرميت، بل أرى شبحاً ولا أرى مثلاً، إلاّ
مسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، أما لو كنت كفواً
لرميت حصائلك بأذربَ من ذلك السنان، ولرشتك بنبال تردعك عن النضال،
ولخطمتك بخنطام يخزم منك موضع الزمام، فاتصل الكلام بابن عباس فاستضحك من
الفزاري، وقال: أما لو كلف أخو فزارة نفسه نقل الصخور من جبال شمام إلى
الهضام، لكان أهون عليه من منازعة أخي عبد القيس، خاب أبوه، ما أجهله!!
يستجهل أخوا عبد القيس، وقواه المريرة، ثم تمثل:

صَبَّتْ عَلَيْكَ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمَّم * إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقَيْنِ مَصِيبٌ.^١

الخوارج مرةً أخرى:

كما قدر لمن بقي من مردي الإمام عليه السلام وشيعته أن يعيشوا في ظلِّ تسلط معاوية، وواليه في الكوفة المغيرة بن شعبة، قدر لهم الثبات على ولائهم لنهج الإمام عليه السلام وسيرته، وعدم نسيان ما حصل له من آلام ومتاعب خلقها هؤلاء له ومن هم على شاكلتهم؛ الناكثون والمارقون... وراحوا يتابعون بحرص وحذر الأوضاع وما يحدث في الساحة... ولم يُبعدوا أنفسهم عن التفاعل مع الأمة والتصدي لما تتعرض لها من أخطار بمواقف جريئة وخطب واعية ومواجهات كلامية تلجم الأعداء وتخرجهم... ومن هذه الأخطار: الخوارج وأفكارهم القاتلة... لقد كان صعصة بن صوحان، كما كان غيره من أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام، ذوي بصيرة بهؤلاء المارقين الخوارج، كما أنهم لم ينسوا أن هؤلاء الخوارج هم السبب فيما حصل في معركة صفين وقفاً للقتال وقبولاً للتحكيم، وإكراهاً للإمام عليٍّ عليه السلام في القبول بذلك، ثم تمردهم وانقلابهم عليه، وتكفيرهم له، وتمزيقهم جيش الإمام عليه السلام، وتضعيف الأمة... وهو ما جاء على لسان صعصة واضحاً صريحاً: «ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا، واستحلوا دماءنا، وشهدوا علينا بالكفر».

ويبدو أن صعصة كان يتربص أن يتحركوا يوماً ما، وفعلاً لما سمع أن بقاياهم الذين كانوا ارتثوا يوم النهر، قد اجتمعوا على الخروج، وكان هذا في سنة ثلاث وأربعين، في أيام المغيرة بن شعبة والي معاوية بن أبي سفيان على الكوفة... وقف

١. مروج الذهب، للمسعودي ١: ٣٦٩.

صعصعة خطيباً في أهل الكوفة، وبالذات في قومه عبد القيس، مبيناً ما وقعت به الأمة من اختلاف بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعد البيعة بالخلافة للإمام عليٍّ عليه السلام... ثم راح يبين خطورة الخوارج، ويدعو الناس إلى عدم إيوائهم...

كما ذكر ذلك «ابن مخنف»... عن مرة بن النعمان، قال: قام فينا صعصعة بن صوحان... فقال: قولاً حسناً، ونحن يومئذ كثيرٌ أشرافنا، حسنٌ عددنا، قال: فقام فينا بعد ما صلى العصر، فقال: يا معشر عباد الله، إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم، فأجبتهم إلى دين الله الذي اختاره الله لنفسه، وارتضاه لملائكته ورسله، ثم أقمتهم عليه حتى قبض الله رسوله ﷺ ثم اختلف الناس بعده فثبتت طائفة، وارتدت طائفة، وأدهنت طائفة، وتربصت طائفة، فلزمتهم دين الله إيماناً به وبرسوله، وقاتلتهم المرتدين حتى قام الدين، وأهلك الله الظالمين، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء، وعلى كل حال، حتى اختلفت الأمة بينها، فقالت طائفة: نريد طلحة والزبير وعائشة، وقالت طائفة: نريد أهل المغرب، وقالت طائفة: نريد عبد الله بن وهب الراسبي، راسب الأزد، وقتلتم أنتم: لا نريد إلا أهل البيت الذين ابتدأنا الله من قبلكم بالكرامة، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً، فلم تزالوا على الحق لازمين له، آخذين به، حتى أهلك الله بكم - وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم الناكثين يوم الجمل، والمارقين يوم النهروان - وسكت عن ذكر أهل الشام؛ لأن السلطان كان حينئذ سلطانهم - ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا، واستحلوا دماءنا، وشهدوا علينا بالكفر؛ فإياكم أن تؤوؤوهم في دوركم، أو تكتموا عليهم، فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي، وأنا باحثٌ عن ذلك وسائل، فإن كان حكي لي ذلك حقاً، تقربتُ إلى الله تعالى بدمائهم، فإن دماءهم حلال. ثم

قال: يا معشر عبد القيس، إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا تجعلوا لهم عليكم سبيلاً، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم. ثم تنحى فجلس. فكل قومه قال: لعنهم الله! وقال: برىء الله منهم، فلا والله فلا نؤويهم، ولئن علمنا بمكانهم لنطلعنك عليهم».

ولأنَّ شيعة عليٍّ عليه السلام كانوا أكثر معرفةً بهؤلاء الخوارج، وكانوا يرصدون تحركاتهم ويتربصون بهم، وهو أمر يعرفه الجميع ومنهم المغيرة بن شعبة والي الكوفة؛ الذي ما إن بلغه أن الخوارج خارجة عليه، حتى دعا جمعاً من أصحاب الإمام عليٍّ عليه السلام وشيعته، «وهم - كما وصفهم المغيرة بن شعبة نفسه - أكثر معرفةً بهؤلاء الخوارج، أشدَّ استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجراً عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة»، دعاهم مع أناس آخرين؛ يبلغهم ويستشيرهم ويستعين بهم، فقال: إنَّ هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الحين وسوء الرأي، فمن ترون أبعث إليهم؟

فتحدث عدد من أتباع الإمام عليه السلام، أولهم عدي بن حاتم، ومما قاله: كلنا لهم عدو، ولرأيهم مسفه،... ثمَّ معقل بن قيس، فقال: إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك... إلَّا وجدته لهم مفارقاً، وهلاكهم محبباً، ولا أرى أصلحك الله أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشدَّ عليهم مني، فابعتني إليهم فإني أكفيكمهم بإذن الله. فقال: اخرج على اسم الله... وفعلاً، كان الذي خرج معه ثلاثة آلاف نقاوة الشيعة وفرسانهم.

إلَّا صعصة!

ولتحمس صعصة لقتال الخوارج، قال لأمير الكوفة المغيرة بن شعبة، كما

١. تاريخ الطبري ٣ : ١٨٠-١٨١، سنة ٤٣.

يقول الخبر: وأما صعصعة بن صوحان «فقام بعد معقل بن قيس، وقال: ابعتني إليهم أيها الأمير، فأنا والله لدمائهم مستحل، وبجملها مستقل». وما موقف صعصعة هذا إلا تحمساً منه ورغبةً في قتال الخوارج.

فكان ردُّ المغيرة عليه أن قال له: اجلس؛ فإنما أنت خطيب، فكان أحفظه ذلك». وإنما قال له ذلك؛ لأنه يعيب عثمان بن عفان، ويكثر ذكر عليٍّ ويفضّله. فدعاه، فقال: إياك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس، وإياك أن يبلغني عنك أنك تظهر شيئاً من فضل عليٍّ علانيةً، فإنك لستَ بذاكر من فضل عليٍّ شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيراً مما أمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بدءاً، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقيّةً، فإن كنتَ ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك وفي منازلكم سرّاً، وأما علانيةً في المسجد فإنّ هذا لا يحتمله الخليفة لنا، ولا يعذرنا به.

فكان يقول له: نعم أفعل، ثمَّ يبلغه أنه قد عاد إلى ما نهاه عنه... هذا ما رواه الطبري، وروى أيضاً: فلما قام (صعصعة) إليه وقال له: ابعتني إليهم، وجد المغيرة قد حقد عليه خلافه إياه، فقال: اجلس فإنما أنت خطيب، فأحفظه. فقال له: أو ما أنا إلاّ خطيب فقط! أجل والله، إني للخطيب الصليب الرئيس، أما والله لو شهدتني تحت راية عبد القيس يوم الجمل حيث اختلفت القنا، فشؤون تُفري، وهامةٌ تُختلي؛ لعلمتَ أنني أنا الليث الهزبر! فقال: حسبك الآن، لعمرى قد أوتيتَ لساناً فصيحاً!

١. انظر تاريخ الطبري ٣ : ١٨٠-١٨٢، سنة ٤٣. بتصرف.

مع علماء الرجال:

ذكره السيد الخوئي في معجم رجال الحديث، تحت الرقم ٥٩٢٣. قال النجاشي: «صعصة بن صوحان العبدي، روى عهد مالك بن الحارث الأشر؛ وعده الشيخ في رجاله من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام؛ فيما عده البرقي من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من ربيعة... كان من شهود وصية أمير المؤمنين عليه السلام». وقال الكشي (١٩): صعصة بن صوحان... عن أحمد بن أبي نصر، قال: كنت عند أبي الحسن الثاني عليه السلام، قال: ولا أعلم إلا قام ونفض الفراش بيده، ثم قال لي: يا أحمد أن أمير المؤمنين عليه السلام عاد صعصة بن صوحان في مرضه، فقال: يا صعصة لا تتخذ عيادتي لك أبهة على قومك، قال: فلما قال أمير المؤمنين عليه السلام لصعصة هذه المقالة، قال صعصة: بلى والله أهداها منة من الله عليّ وفضلاً، قال: فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إني كنت ما علمتك إلا لخفيف المؤونة، حسن المعونة، قال: فقال صعصة: وأنت والله يا أمير المؤمنين ما علمتك إلا بالله عليمًا، وبالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.

...عن داود بن أبي يزيد، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما كان مع أمير المؤمنين عليه السلام من يعرف حقه إلا صعصة وأصحابه. ذكر السيد الخوئي هذه الرواية في ترجمة أخيه سيحان بن صعصة، تحت رقم ٥٦٥٨، العبدي أخو صعصة: من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، رجال الشيخ. وعن ابن داود: ضبطه بالباء الموحدة. قائلًا: ولا يبعد استفادة مدحه من قول الصادق عليه السلام: «ما كان مع أمير المؤمنين عليه السلام من يعرف حقه إلا صعصة وأصحابه.

١. الكافي: الجزء ٧، كتاب الصدقات، باب صدقات النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة والأئمة عليهم السلام (٣٥)، الحديث ٧؛ والتهديب: الجزء ٩، باب الوقوف والصدقات، الحديث ٦٠٨.

...عاصم بن أبي النجود، عمن شهد ذلك، أن معاوية حين قدم الكوفة، دخل عليه رجال من أصحاب عليٍّ عليه السلام، وكان الحسن عليه السلام قد أخذ الأمان لرجال منهم مسمّين بأسمائهم وأسماء آبائهم، وكان فيهم صعصعة، فلما دخل عليه صعصعة، قال معاوية لصعصعة: أما والله إني كنت لأبغض أن تدخل في أماني، قال: وأنا والله أبغض أن أسميك بهذا الاسم، ثم سلم عليه بالخلافة، قال: فقال معاوية: إن كنت صادقاً فاصعد المنبر والعن علياً!! قال: فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، أتيتكم من عند رجل قدم شره، وآخر خيره، وإنه أمرني أن ألعن علياً، فالعنوه لعنه الله، فضجّ أهل المسجد بآمين، فلما رجع إليه، فأخبره بما قال، قال: لا والله ما عنيتَ غيري، أرجع حتى تسميه باسمه، فرجع وصعد المنبر، ثم قال: يا أيها الناس، إن أمير المؤمنين أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوا من لعن علي بن أبي طالب، قال: فضجوا بآمين، قال: فلما خبر معاوية، قال: لا والله ما عني غيري، أخرجوه، لا يساكنني في بلد فأخرجوه^١.

ولم أجد في المعجم ذكراً لزيد بن صوحان! نعم ذكر في المستدرک تحت رقم ٥٩٤٤، زيد بن صوحان العبدي أخو صعصعة، أكبر منه، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وكان من الأبدال ومن التابعين ورؤسائهم وزهادهم... حدثهم في البصرة، عن حذيفة بن اليمان، أنه قال: انظروا الفئة التي فيها عليٌّ فأتوها ولو زحفاً على ركبكم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عليٌّ أمير البررة، وقاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله إلى يوم القيامة».

كلماته في ترغيب أهل الكوفة في نصره أمير المؤمنين عليه السلام وقوله: أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين، وانفروا إليه أجمعين، تصيبوا الحق راشدين.

١. معجم رجال الحديث ١٠: ١١٢-١١٤ رقم ٥٩٢٣، بتصرف وتلخيص.

كش: إن عائشة كتبت من البصرة إلى زيد بن صوحان، إلى الكوفة: من عائشة زوجة النبي ﷺ إلى ابنها زيد بن صوحان الخالص. أما بعد إذا أتاك كتابي هذا، فاجلس في بيتك، وخذ الناس عن علي بن أبي طالب حتى يأتيك أمري. فلما قرأ كتابها، قال: أمرت بأمر وأمرنا بغيره، فركبت ما أمرنا به، وأمرتنا أن نركب ما أمرت هي به. أمرت أن تقرأ في بيتها، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة. والسلام.

إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام، إياه مع ابن عباس، لموعظة عائشة.

النبوي ﷺ ذكر زيد بن صوحان، فقال: «زيد! وما زيد! يسبق منه عضو إلى الجنة». فقطعت يده يوم نهاوند في سبيل الله. عن الصادق عليه السلام، قال: لما صرع زيد بن صوحان رحمه الله يوم الجمل، جاء أمير المؤمنين عليه السلام حتى جلس عند رأسه فقال: رحمك الله يا زيد، لقد كنت خفيف المؤونة، عظيم المعونة. قال: فرفع زيد رأسه إليه، ثم قال: وأنت فجزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين، فوالله ما علمتك إلا بالله عليمًا، وفي أم الكتاب حكيماً، وأن الله في صدرك لعظيم، والله ما قاتلت معك على جهالة، ولكنني سمعت أم سلمة زوجة النبي ﷺ تقول: «سمعت رسول الله يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله. فكرهت والله أن أخذلك فيخذلني الله». ورواه المفيد في الاختصاص عنه، مثله... وقريب منه إلا أنه في آخره: سمعت حذيفة بن اليمان، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي أمير البرة - إلى آخر ما تقدم، وزاد: ألا وإن الحقَّ معه يتبعه، ألا فميلوا معه... وأنه من الثلاثة الذين شهدوا معه بصفين. ونقله المفيد في الاختصاص: ٨٢ مسأله عن أمير المؤمنين عليه السلام. كما ١٧: ٩٩، وجد ٧٧: ٣٧٧. وفي ترجمة إبراهيم بن هاشم القمي ما يتعلق به وبمسجده...

وقال العلامة الأميني: زيد بن صوحان العبدي، الشهير بزيد الخير. أدرك النبي الأعظم ﷺ، وترجمه ابن الأثير وابن حجر - ثم ذكر الروايات النبوية وكلمات العلماء في مدحه والثناء عليه وبيان جلالته وقوله لأمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل: «ما أراني إلا مقتولاً». وذلك لما رآه في المنام. كتاب الغدير ط ٢، ٩: ٤١-٤٣.

وفي القاموس، نقل عن المسعودي كلمات صعصعة في مدح أخيه زيد حين سأله ابن عباس. فقال: كان والله عظيم المروة، شريف الإخوة، جليل الخطر، بعيد الأثر، كميث العروة، أليف البدوة...^١

وفاته رضوان الله عليه

بقي حقد المغيرة بن شعبة عليه، وراح يزداد، وصعصعة لا يتوقف عن المجاهرة بحبه للإمام علي عليه السلام وبولائه، وبعدائه للسلطة الأموية، حتى صار بنظرها كما وصفه عفير، حين يقول معاوية عن صعصعة: ... أعظم جرماً عندك... وأنكأ لقلبك، وأقدح في صفاتك، وأجد في عداوتك، وأشد انتصاراً في حربك.

إذن وبسبب مواقفه هذه غير المهادنة للمغيرة وسلطته، ضاق المغيرة به ذرعاً، فنفاه عن الكوفة بأمر معاوية، وكان نفيه مردداً بين مكانين هما: جزيرة أوالى من البحرين.

جزيرة ابن كافان أو كاوان ويُقال: جزيرة بني كاوان، وبقي في منفاه حتى توفاه الله تعالى سنة ٦٠ هـ.

وقد ذكر ابن سعد أنه توفي بالكوفة في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

١. انظر مستدركات علم رجال الحديث، للشيخ علي النمازي الشاهرودي ٣: ٤٧٤-٤٧٦ رقم ٥٩٤٤؛ وانظر رجال الكشي: ٥٥، رقم ١٨.

وقال صاحب كتاب مراقد المعارف «المعروف أن قبره في ظهر الكوفة بـ
«الثوية».

فيما ذكر صاحب كتاب العتبات المقدسة في الكوفة أنه لم يعرف إلى الآن أن
لصعصعة قبراً لا بالكوفة ولا في ضواحيها القديمة. وهناك قبر مشهور يُزار في جزيرة
عسكر، يحكى عن البحرينيين أنه معروف بقبر صعصعة بن صوحان...
نعم، يقال: إن هناك مسجداً له في الكوفة إلى الشرق من مسجد السهلة،
ومساحته ٧٥ متراً كان يتعبد فيه.^١

لقد التحق هؤلاء الإخوة الثلاثة الصالحون بالرفيق الأعلى؛ ليجدوا لهم مقعد
صدق «مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».
نسأله تعالى أن يُوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله!



١. انظر الإصابة ٢: ١٩٢؛ تهذيب التهذيب ٤: ٤٢٢؛ وطبقات ابن سعد؛ مراقد المعارف، لمحمد حرز
الدين: ٤٠٧١؛ تاريخ الكوفة ٤٦-٤٧؛ والبحار ١٠٠: ٤٤٦-٤٤٨؛ وغيرها من كتب المنارات
والأدعية؛ وانظر معجم البلدان ٢: ١٠٣ فيه كلام عن هذه الجزيرة.